(٨٧) سُورَةُ الأَعْلَى مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا تِسْعَ عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ﴾ اعلم أن قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (اسم ربك) قولان (أحدهما) أن المراد الأمر بتنزيه اسم الله وتقديسه (والثانى) أن الاسم صلة والمراد الأمر بتنزيه الله تعالى . أما على الوجه الأول ففى اللفظ احتمالات (أحدها) أن المراد نزه اسم ربك عن أن تسمى به غيره ، فيكون ذلك نهياً على أن يدعى غيره باسمه ، كما كان المشركون يسمون الصنم باللات ، ومسيلمة برحمان اليمامة (وثانيها) أن لا يفسر أسماءه بما لا يصح ثبوته فى حقه سبحانه نحو أن يفسر الأعلى بالعلو فى المكان والاستواء بالاستقرار بل يفسر العلو بالقهر والاقتدار والاستواء بالاستيلاء (وثالثها) أن يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم ، ويدخل فيه أن يذكر تلك الأسماء عند الغفلة وعدم الوقوف على معانيها وحقائقها (ورابعها) أن يكون المراد بسبح باسم ربك ، أى مجده بأسمائه التى أنزلتها عليك وعرفتك أنها أسماؤه كقوله (قل ادعوا الله أو أدعوا الرحمن) ونظير هذا التأويل قوله تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) ومقصود الكلام من هذا التأويل أمران : (أحدهما) سبح اسم ربك الأعلى . أى صل باسم ربك ، لا كما يصلى المشركون بالمكاء والتصدية (والثانى) أن لا يذكر العبد ربه إلا بأسماء التى ورد التوقيف بها ، قال الفراء : لا فرق بين (سبح اسم ربك) وبين (سبح باسم ربك) قال الواحدى وبينهما فرق لأن معنى (سبح باسم ربك) نزه الله تعالى بذكر اسمه المنبىء عن تنزيهه وعلوه عما يقول المبطلون ، و (سبح اسم ربك) أى نزه الاسم من السوء (وخامسها) قال أبو مسلم المراد من الاسم ههنا الصفة ، وكذا فى

قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) أما على الوجه الثانى وهو أن يكون الاسم صلة ويكون المعنى سبح ربك وهو اختيار جمع من المحققين ، قالوا لأن الإسم فى الحقيقة لفظة مؤلفة من حروف ولا يجب تنزيهها كما يجب فى الله تعالى ، ولكن المذكور إذا كان فى غاية العظمة لايذكر هو بل يذكر إسمه فيقال سبح اسمه ، ومجد ذكره ، كما يقال سلام على المجلس العالى ، وقال لبيد : إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

أى السلام وهذه طريقة مشهورة فى اللغة ، ونقول على هذا الوجه تسبيح الله يحتمل وجهين (الأول) أن لا يعامل الكفار معاملة يقدمون بسببها على ذكر الله بما لا ينبغى على ما قال (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) ، (الثانى) أنه عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل مالا يليق به ، فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وفى أسمائه وفى أحكامه ، أما فى ذاته فأن يعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض ، وأما فى صفاته ، فأن يعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة ، وأما فى أفعاله فأن يعتقد أنه مالك مطلق ، فلا اعتراض لأحد عليه فى أمر من الأمور ، وقالت المعتزلة هو أن يعتقد أن كل ما فعله فهو صواب حسن ، وأنه لا يفعل القبيح ولا يرضى به ، وأما فى أسمائه فأن لايذكر سبحانه إلا بالأسماء التى ورد التوقيف بها ، هذا عندنا وأما عند المعتزلة فهو أن لا يذكر إلا بالأسماء التى لاتوهم نقصاً بوجه من الوجوه سواء ورد الإذن بها أو لم يرد ، وأما فى أحكامه فهو أن يعلم أنه ماكلفنا لنفع يعود إليه . بل إما لمحض المالكية على ماهو قولنا ، أو لرعاية مصالح العباد على ما [هو] قول المعتزلة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من تمسك بهذه الآية فى أن الإسم نفس المسمى ، فأقول إن الخوض فى الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل النزاع ، فلا بد ههنا من بيان أن الإسم ما هو والمسمى ما هو حتى يمكننا أن نخوض فى الإسم هل هو نفس المسمى أم لا ، فنقول ، وإن كان المراد من الإسم هو هذا اللفظ ، وبالمسمى تلك الذات ، فالعاقل لا يمكنه أن يقول الاسم هو المسمى ، وإن كان المراد من الاسم هو تلك الذات ، وبالمسمى أيضاً تلك الذات كان قولنا الاسم نفس المسمى ، هو أن تلك الذات نفس تلك الذات ، وهذا لا يمكن أن ينازع فيه عاقل ، فعلمنا أن هذه المسألة فى وصفها ركيكة . وإن كان كذلك كان الخوض فى ذكر الاستدلال عليه أرك وأبعد بلى ههنا دقيقة ، وهى أن قولنا اسم لفظة جعلناها اسماً لكل مادل على معنى غير مقترن بزمان ، والاسم كذلك فيلزم أن يكون الاسم إسماً لنفسه فههنا الاسم نفس المسمى فلعل العلماء الأولين ذكروا ذلك فاشتبه الأمر على المتأخرين ، وظنوا أن الاسم فى جميع المواضع نفس المسمى ، هذا حاصل التحقيق فى هذه المسألة ، ولنرجع إلى الكلام المألوف ، قالوا الذى يدل على أن الاسم نفس المسمى أن أحداً لا يقول سبحان اسم الله وسبحان اسم ربنا فمعنى سبح اسم ربك سبح ربك ، والرب أيضاً اسم فلو كان غير المسمى لم يجز أن يقع التسبيح عليه ، واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لما بينا

فى المسألة الأولى أنه يمكن أن يكون الأمر وارداً بتسبيح الاسم ، ويمكن أن يكون المراد تسبيح المسمى وذكر الاسم صلة فيه . ويمكن أن يكون المراد سبح باسم ربك كما يقال (فسبح باسم ربك العظيم) ويكون المعنى سبح ربك بذكر أسمائه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى عن عقبة بن عامر أنه لما نزل قوله تعالى (فسبح اسم ربك العظيم) قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجعلوها فى ركوعكم » ولما نزل قوله (سبح اسم ربك الأعلى) قال « اجعلوها فى سجودكم » ثم روى فى الأخبار أنه عليه السلام كان يقول فى ركوعه « سبحان ربى العظيم » وفى سجوده « سبحان ربى الأعلى » ثم من العلماء من قال إن هذه الأحاديث تدل على أن المراد من قوله (سبح اسم ربك) أى صل باسم ربك ، ويتأكد هذا الاحتمال بإطباق المفسرين على أن قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) ورد فى بيان أوقات الصلاة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ على عليه السلام وابن عمر (سبحان الأعلى ، الذى خلق فسوى) ولعل الوجه فيه أن قوله (سبح) أمر بالتسبيح فلا بد وأن يذكر ذلك التسبيح وما هو إلا قوله سبحان ربى الأعلى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ تمسكت المجسمة فى إثبات العلو بالمكان بقوله (ربك الأعلى) والحق أن العلو بالجهة على الله تعالى محال ، لأنه تعالى إما أن يكون متناهياً أو غير متناه ، فان كان متناهياً كان طرفه الفوقانى متناهياً ، فكان فوقه جهة فلا يكون هو سبحانه أعلى من جميع الأشياء . وأما إن كان غير متناه فالقول بوجود أبعاد غير متناهية محال وأيضاً فلأنه إن كان غير متناه من جميع الجهات يلزم أن تكون ذاته تعالى مخلطة بالقاذورات تعالى الله عنه ، وإن كان غير متناه من بعض الجهات ومتناهياً من بعض الجهات كان الجانب المتناهى مغايراً للجانب غير المتناهى فيكون مركباً من جزأين ، وكل مركب ممكن ، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود ، هذا محال . فثبت أن العلو ههنا ليس بمعنى العلو فى الجهة ، مما يؤكد ذلك أن ما قبل هذه الآية وما بعدها ينافى أن يكون المراد هو العلو بالجهة ، أما ما قبل الآية فلأن العلو عبارة عن كونه فى غاية البعد عن العالم ، وهذا لا يناسب استحقاق التسبيح والثناء والتعظيم ، أما العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالتخليق والإبداع فيناسب ذلك ، والسورة ههنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لأجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم ، وأما ما بعد هذه الآية فلأنه أردف قوله (الأعلى) بقوله (الذى خلق فسوى) والخالقية تناسب العلو بحسب القدرة لا العلو بحسب الجهة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ من الملحدين من قال : بأن القرآن مشعر بأن للعالم ربين أحدهما عظيم والآخر أعلى منه ، أما العظيم فقوله (فسبح باسم ربك العظيم) وأما الأعلى منه فقوله (سبح اسم ربك الأعلى) فهذا يقتضى وجود رب آخر يكون هذا أعلى بالنسبة إليه .

واعلم أنه لما دلت الدلائل على أن الصانع تعالى واحد سقط هذا السؤال ، ثم نقول ليس فى

هذه الآية أنه سبحانه وتعالى أعلى من رب آخر ، بل ليس فيه إلا أنه أعلى ، ثم لنا فيه تأويلات

﴿ الأول ﴾ أنه تعالى أعلى وأجل وأعظم من كل ما يصفه به الواصفون ، ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون ، فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا ، وأصناف آلائه ونعمائه أعلى من حمدنا وشكرنا ، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا .

﴿ الثانى ﴾ أن قوله (الأعلى) تنبيه على استحقاق الله التنزيه من كل نقص فكأنه قال سبحانه فإنه (الأعلى) أى فإنه العالى على كل شيء بملكه وسلطانه وقدرته ، وهو كما تقول اجتنبت الخمر المزيلة للعقل أى اجتنبتها بسبب كونها مزيلة للعقل .

﴿ والثالث ﴾ أن يكون المراد بالأعلى العالى كما أن المراد بالأكبر الكبير .

﴿ المسألة السابعة ﴾ روى أنه عليه السلام كان يحب هذه السورة ويقول « لو علم الناس علم سبح اسم ربك الأعلى لرددها أحدهم ست عشرة مرة » وروى « أن عائشة مرت بأعراب يصلى بأصحابه فقرأ (سبح اسم ربك الأعلى ، الذى يسر على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، الا بلى ألا بلى) فقالت عائشة لا آب غائبكم ، ولا زالت نساؤكم فى لزبة » والله أعلم .

أما قوله تعالى (الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى) فاعلم أنه سبحانه وتعالى لما أمر بالتسبيح ، فكأن سائلا قال : الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة ، فما الدليل على وجود الرب ؟ فقال (الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى) واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هى الطريقة المتعمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام ، والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ، أنه قال (الذى خلقنى فهو يهدين) وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى وهرون عليهما السلام (فمن ربكما يا موسى) ؟ قال موسى عليه السلام (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وأما محمد عليه السلام فانه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق) هذا إشارة إلى الخلق ، ثم قال (اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم) وهذا إشارة إلى الهداية ، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة فى هذه السورة ، فقال (الذى خلق فسوى ، والذى قدّر فهدى) وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيراً لما ذكرنا أن العجائب والغرائب فى هذه الطريقة أكثر ، ومشاهدة الإنسان لها ، واطلاعه عليها أتم ، فلا جرم كانت أقوى فى الدلالة ، ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (خلق فسوى) يحتمل أن يريد به الناس خاصة ، ويحتمل أن يريد الحيوان ، ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه ، فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهاً (أحدها) أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة ، على ما قال (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه ، فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، (وثانيها) أن كل حيوان

فإنه مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط ، وغير مستعد لسائر الأعمال ، أما الإنسان فإنه خلق بحيث يمكنه أن يأتى بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة فالتسوية إشارة إلى هذا (وثالثها) أنه هيأ للتكليف والقيام بأداء العبادات ، وأما من حمله على جميع الحيوانات . قال المراد أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس ، وقد استقصينا القول فى هذا الباب فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، وأما من حمله على جميع المخلوقات ، قال المراد من التسوية هو أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات ، خلق ما أراد على وفق ما أرد موصوفاً بوصف الأحكام والإتقان ، مبرأ عن الفسخ والاضطراب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الجمهور (قدر) مشددة وقرأ الكسائى على التخفيف ، أما قراءة التشديد فالمعنى أنه قدر كل شيء بمقدار معلوم ، وأما التخفيف فقال القفال معناه ملك فهدى وتأويله : أنه خلق فسوى ، وملك ما خلق ، أى تصرف فيه كيف شاء وأراد ، وهذا هو الملك فهداه لمنافعه ومصالحه ، ومنهم من قال هما لغتان بمعنى واحد ، وعليه قوله تعالى (فقدرنا فنعم القادرون) بالتشديد والتخفيف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن قوله (قدر) يتناول المخلوقات فى ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدر السموات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والانسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم ، وقدر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأيون والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقداراً معلوماً على ما قال (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم) وتفصيل هذه الجملة مما لا يفى بشرحه المجلدات ، بل العالم كله من أعلى أعليين إلى أسفل السافلين ، تفسير هذه الآية . وتفصيل هذه الجملة .

أما قوله (فهدى) فالمراد أن كل مزاج فانه مستعد لقوة خاصة وكل قوة فانها لا تصلح إلا لفعل معين ، فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف فى الأجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لأجله تستعد لقبول تلك القوى ، وقوله (فهدى) عبارة عن خلق تلك القوى فى تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدراً لفعل معين ، ويحصل من مجموعها تمام المصلحة ، وللمفسرين فيه وجوه ، قال مقاتل : هدى الذكر للأنثى كيف يأتيها ، وقال آخرون هداه للمعيشة ورعاه ، وقال آخرون هدى الانسان لسبل الخير والشر والسعاة والشقاوة ، وذلك لأنه جعله حساساً دراكا متمكناً من الإقدام على مايسره والإحجام عما يسوءه كما قال (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) وقال (ونفس وماسواها، فألهمها فجورها وتقواها) وقال السدى : قدر مدة الجنين فى الرحم ثم هداه للخروج وقال الفراء قدر فهدى وأضل ، فاكتفى بذكر (أحداهما) كقوله (سرابيل تقيكم الحر) وقال آخرون الهداية بمعنى الدعاء إلى الإيمان كقوله (وإنك لتهدى) أى تدعو ، وقد دعى الكل إلى الإيمان ، وقال

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾

آخرون هدى أى دلهم بأفعاله على توحيده وجلال كبريائه ، ونعوت صمديته ، وفردانيته ، وذلك لأن العاقل يرى فى العالم أفعالا محكمة متقنة منتسقة منتظمة ، فهى لا محالة تدل على الصانع القديم ، وقال قتادة فى قوله (فهدى) إن الله تعالى ما أكره عبداً على معصية ، ولا على ضلالة ، ولا رضيها له ولا أمره بها ، ولكن رضى لكم الطاعة ، وأمركم بها ، ونهاكم عن المعصية ، واعلم أن هذه الأقوال على كثرتها لا تخرج عن قسمين ، فمنهم من حمل قوله (فهدى) على ما يتعلق بالدين كقوله (وهديناه النجدين) ومنهم من حمله على ما يرجع إلى مصالح الدنيا ، والأول أقوى ، لأن قوله (خلق فسوى وقدر) يرجع إلى أحوال الدنيا ، ويدخل فيه إكمال العقل والقوى ثم أتبعه بقوله (فهدى) أى كلفه ودل على الدين ، أما قوله تعالى (والذى أخرج المرعى) فاعلم أنه سبحانه لما بين ما يختص به الناس أتبعه بذكر ما يختص به غير الناس من النعم : فقال (والذى أخرج المرعى) أى هو القادر على إنبات العشب لا الأصنام التى عبدتها الكفرة ، والمرعى ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش ، قال ابن عباس المرعى الكلأ الأخضر ، ثم قال فجعله غثاء أحوى وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الغثاء ما يبس من النبت فحملته الأودية والمياه وألوت به الرياح ، وقال قطرب واحد الغثاء غثاءة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الحوة السواد ، وقال بعضهم الأحوى هو الذى يضرب إلى السواد إذا أصابته رطوبة ، وفى أحوى قولان (أحدهما) أنه نعت الغثاء أى صار بعد الخضرة يابساً فتغير إلى السواد ، وسبب ذلك السواد أمور (أحدها) أن العشب إنما يجف عند استيلاء البرد على الهواء ، ومن شأن البرودة أنها تبيض الرطب وتسود اليابس (وثانيها) أن يحملها السيل فيلصق بها أجزاء كدرة فتسود (وثالثها) أن يحملها الريح فتلصق بها الغبار الكثير فتسود (القول الثانى) وهو اختيار الفراء وأبى عبيدة ، وهو أن يكون الأحوى هو الأسود لشدة خضرته ، كما قيل (مدهامتان) أى سوداوان لشدة خضرتهما ، والتقدير الذى أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء ، كقوله (ولم يجعل له عوجاً قيما) أى أنزله قيما ولم يجعل له عوجاً .

قوله تعالى :﴿ سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً بالتسبيح فقال (سبح اسم ربك الأعلى) وعلم محمداً عليه السلام أن ذلك التسبيح لا يتم ولا يكمل إلا بقراءة ما أنزله الله تعالى عليه من القرآن ، لما بينا أن التسبيح الذى يليق به هو الذى يرتضيه لنفسه ، فلا جرم كان يتذكر القرآن فى نفسه مخافة أن ينسى فأزال الله تعالى ذلك الخوف عن قلبه بقوله (سنقرئك فلا تنسى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدى (سنقرئك) أى سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقرؤه ، والمعنى نجعلك قارئاً للقرآن تقرؤه فلا تنساه ، قال مجاهد ومقاتل والكلبي : كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة أن ينسى ، وكان جبريل لا يفرغ من آخر الوحى حتى يتكلم هو بأوله مخافة النسيان ، فقال تعالى (سنقرئك فلا تنسى) أى سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه ، ونظيره قوله (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) وقوله (لاتحرك به لسانك لتعجل به) ثم ذكروا فى كيفية ذلك الاستقراء والتعليم وجوهاً (أحدها) أن جبريل عليه السلام سيقرأ عليك القرآن مرات حتى تحفظه حفظاً لاتنساه (وثانيها) أنا نشرح صدرك ونقوى خاطرك حتى تحفظ بالمرة الواحدة حفظاً لاتنساه (وثالثها) أنه تعالى لما أمره فى أول السورة بالتسبيح فكأنه تعالى قال : واظب على ذلك ودم عليه فإنا سنقرئك القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين ويكون فيه ذكرك وذكر قومك ونجمعه فى قلبك ، ونيسرك لليسرى وهو العمل به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على المعجزة من وجهين (الأول) أنه كان رجلا أمياً فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة ، خارق للعادة فيكون معجزاً (الثانى) أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة ، فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع فى المستقبل وقد وقع فكان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً ، أما قوله (فلا تنسى) فقال بعضهم (فلا تنسى) معناه النهى ، والألف مزيدة للفاصلة ، كقوله (السبيلا) يعنى فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه ، والقول المشهور أن هذا خبر والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى وتأمن النسيان ، كقولك سأكسوك فلا تعرى أى فتأمن العرى ، واحتج أصحاب هذا القول على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لا يتم إلا عند التزام مجازات فى هذه الآية منها أن النسيان لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يصح ورود الأمر والنهى به ، فلا بد وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء التى تنافى النسيان مثل الدراسة وكثرة التذكر . وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ . ومنها أن تجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضاً خلاف الأصل ومنها أنا إذا جعلناه خبراً كان معنى الآية بشارة الله إياه بأنى أجعلك بحيث لا تنساه ، وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهى الدراسة والقراءة ، وهذا ليس فى البشارة وتعظيم حاله مثل الأول ، ولأنه على خلاف قوله (لاتحرك به لسانك لتعجل به)

أما قوله (إلا ما شاء الله) ففيه احتمالان (أحدهما) أن يقال هذا الاستثناء غير حاصل فى الحقيقة وأنه عليه السلام لم ينس بعد ذلك شيئاً . قال الكلبى : إنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئاً ، وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله (إلا ما شاء الله) أحد أمور (أحدها) التبرك بذكر هذه الكلمة على ماقال تعالى (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً ، إلا أن يشاء الله) وكأنه تعالى يقول : أنا مع أنى عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الأمور على التفصيل لاأخبر عن

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾

وقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة فأنت وأمتك يامحمد أولى بها (وثانيها) قال الفراء إنه تعالى ماشاء أن ينسى محمد عليه السلام شيئاً ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لذلك لقدر عليه ، كما قال (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) ثم إنا نقطع بأنه تعالى ماشاء ذلك وقال لمحمد عليه السلام (لئن أشركت ليحبطن عملك) مع أنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك البتة ، وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوز رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ماينزل عليه من الوحي قليلا كان أو كثيراً أن يكون ذلك هو المستثنى ، فلا جرم كان يبالغ في التثبت والتحفظ والتيقظ في جميع المواضع ، فكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاءه عليه السلام على التيقظ ، في جميع الأحوال (ورابعها) أن يكون الغرض من قوله (إلا ما شاء الله) نفي النسيان رأساً ، كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء [الله] ، ولا يقصد استثناء شيء (القول الثاني) أن قوله (إلا ما شاء الله) استثناء في الحقيقة ، وعلى هذا التقدير تحتمل الآية وجوهاً (أحدها) قال الزجاج : إلا ما شاء الله أن ينسى ، فإنه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك ، فإذا قد ينسى ولكنه يتذكر فلا ينسى نسياناً كلياً دائماً ، روى أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة ، فحسب أبي أنها نسخت ، فسأله فقال نسيتها (وثانيها) قال مقاتل : إلا ما شاء الله أن ينسيه ، ويكون المراد من الإنساء ههنا نسخه ، كما قال (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها) فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها ، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلى به ، فيصير ذلك سبباً لنسيانه ، وزواله عن الصدور (وثالثها) أن يكون معنى قوله (إلا ما شاء الله) القلة والندرة ، ويشترط أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشرع ، بل من الآداب والسنن ، فإنه لو نسى شيئاً من الواجبات ولم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل في الشرع ، وإنه غير جائز .

أما قوله تعالى (إنه يعلم الجهر ومايخفى) ففيه وجهان (أحدهما) أن المعنى أنه سبحانه عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام ، وعالم بالسر الذى في قلبك وهو أنك تخاف النسيان ، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه (والثاني) أن يكون المعنى : فلا تنسى إلا ما شاء الله أن ينسخ ، فإنه أعلم بمصالح العبيد ، فينسخ حيث يعلم أن المصلحة في النسخ .

قوله تعالى : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اليسرى هي أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر ، إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه وجوه (أحدها) أن قوله (ونيسرك) معطوف على (سنقرؤك) وقوله (إنه يعلم

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾

الجهر وما يخفى) اعتراض ، والتقدير : سنقرؤك فلا تنسى ، ونوفقك للطريقة التى هى أسهل وأيسر ، يعنى فى حفظ القرآن (وثانيها) قال ابن مسعود : اليسرى الجنة ، والمعنى نيسرك للعمل المؤدى إليها (وثالثها) نهون عليك الوحى حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به (ورابعها) نوفقك للشريعة وهى الحنيفية السهلة السمحة ، والوجه الأول أقرب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لسائل أن يسأل فيقول العبارة المعتادة أن يقال جعل الفعل الفلانى ميسراً لفلان ، ولا يقال جعل فلان ميسراً للفعل الفلانى فما الفائدة فيه ؟ ههنا (الجواب) أن هذه العبارة كما أنها اختيار القرآن فى هذا الموضع ، وفى سورة الليل أيضاً ، فكذا هى اختيار الرسول فى قوله عليه السلام « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وفيه لطيفة علمية ، وذلك لأن ذلك الفعل فى نفسه ماهية ممكنة قابلة للوجود والعدم على السوية ، فما دام القادر يبقى بالنسبة إلى فعلها وتركها على السوية امتنع صدور الفعل عنه ، فإذا ترجح جانب الفاعلية على جانب التاركية ، فحينئذ يحصل الفعل ، فثبت أن الفعل ما لم يجب لم يوجد ، وذلك الرجحان هو المسمى بالتيسير ، فثبت أن الأمر بالتحقيق هو أن الفاعل يصير ميسيراً للفعل ، لا أن الفعل يصير ميسراً للفاعل ، فسبحان من له تحت كل كلمة حكمة خفية وسر عجيب يبهر العقول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال (ونيسرك لليسرى) بنون التعظيم لتكون عظمة المعطى دالة على عظمة العطاء ، نظيره قوله تعالى (إنا أنزلناه ، إنا نحن نزلنا الذكر ، إنا أعطيناك الكوثر) دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل مالم يفتحه على أحد غيره ، وكيف لا وقد كان صبياً لا أب له ولا أم له نشأ فى قوم جهال ، ثم إنه تعالى جعله فى أفعاله وأقوال قدوة للعالمين ، وهدياً للخلق أجمعين .

أما قوله تعالى ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ فاعلم أنه تعالى لما تكفل بتيسير جميع مصالح الدنيا والآخرة أمر بدعوة الخلق إلى الحق ، لأن كمال حال الإنسان فى أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه تاماً وفوق التمام ، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام تاماً بمقتضى قوله (ونيسر لليسرى) أمر بأن يجعل نفسه فوق التمام بمقتضى قوله (فذكر) لأن التذكير يقتضى تكميل الناقصين وهداية الجاهلين ، ومن كان كذلك كان فياضاً للكمال ، فكان تاماً وفوق التمام ، وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل فيجب عليه أن يذكرهم سواء نفعتهم الذكرى أو لم تنفعهم ، فما المراد من تعليقه على الشرط فى قوله (إن نفعت الذكرى) ؟ (الجواب) أن المعلق بأن على الشىء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشىء ، ويدل عليه آيات منها هذه الآية ومنها قوله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً) ومنها قوله (واشكروا لله إن كنتم

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠)

إياه تعبدون) ومنها قوله (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم) فان القصر جائز وإن لم يوجد الخوف ، ومنها قوله (فإن لم تجدوا كاتباً فرهان) والرهن جائز مع الكتابة ، ومنها قوله (فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله) والمراجعة جائزة بدون هذا الظن ، إذا عرفت هذا فنقول ذكروا لذكر هذا الشرط فوائد (إحداها) أن من باشر فعلا لغرض فلا شك أن الصورة التي علم فيها إفضاء تلك الوسيلة إلى ذلك الغرض ، كان إلى ذلك الفعل أوجب من الصورة التي علم فيها عدم ذلك الافضاء ، فلذلك قال (إن نفعت الذكرى) (وثانيها) أنه تعالى ذكر أشرف الحالتين ، ونبه على الأخرى كقوله (سرابيل تقيكم الحر) والتقدير (فذكر إن نفعت الذكرى) أو لم تنفع (وثالثها) أن المراد منه البعث على الانتفاع بالذكرى ، كما يقول المرء لغيره إذا بين له الحق ، قد أوضحت لك إن كنت تعقل فيكون مراده البعث على القبول والانتفاع به (ورابعها) أن هذا يجري مجرى تنبيه الرسول ﷺ أنه لا تنفعهم الذكرى كما يقال للرجل ادع فلاناً إن أجابك ، والمعنى وما أراه يجيبك (وخامسها) أنه عليه السلام دعاهم إلى الله كثيراً ، وكلما كانت دعوته أكثر كان عتوهم أكثر ، وكان عليه السلام يحترق حسرة على ذلك فقيل له (وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) إذ التذكير العام واجب في أول الأمر فأما التكرير فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود فلهذا المعنى قيده بهذا الشرط .

﴿ السؤال الثاني ﴾ التعليق بالشرط إنما يحسن في حق من يكون جاهلا بالعواقب ، أما علام الغيوم فكيف يليق به ذلك ؟ (الجواب) روي في الكتب أنه تعالى كان يقول لموسى (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وأنا أشهد أنه لا يتذكر ولا يخشى . فأمر الدعوة والبعثة شيء وعلمه تعالى بالمغيبات وعواقب الأمور غير ولا يمكن بناء أحدهما على الآخر .

﴿ السؤال الثالث ﴾ التذكير المأمور به هل مضبوط مثل أن يذكرهم عشرات مرات ، أو غير مضبوط ، وحينئذ كيف يكون الخروج عن عهدة التكليف ؟ (والجواب) أن الضابط فيه هو العرف والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن الناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام منهم من قطع بصحته ، ومنهم من جوز وجوده ولكنه غير قاطع فيه لا بالنفي ولا بالاثبات ، ومنهم من أصر على انكاره وقطع بأنه لا يكون فالقسمان الأولان تكون الخشية حاصلة لهما ، وأما القسم الثالث فلا خشية له ولا خوف إذا عرفت ذلك ظهر أن الآية تحتمل تفسيرين : (أحدهما) أن يقال الذي يخشى هو الذي يكون عارفاً بالله وعارفاً بكمال قدرته وعلمه وحكمته ، وذلك يقتضي كونه قاطعاً بصحة المعاد

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى «١١» الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى «١٢»

ولذلك قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فكأنه تعالى لما قال (فذكر إن نفعت الذكرى) بين فى هذه الآية أن الذى تنفعه الذكرى من هو ، ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنياً على حصول الخشية فى القلب ، وصفات القلوب مما لا اطلاع لأحد عليها إلا الله سبحانه وجب على الرسول تعميم الدعوة تحصيلا للمقصود ، فإن المقصود تذكير من ينتفع بالتذكير ، ولا سبيل إليه إلا بتعميم التذكير (الثانى) أن يقال إن الخشية حاصلة للعالمين وللمتوقفين غير المعاندين وأكثر الخلق متوقفون غير معاندين والمعاند فيهم قليل ، فإذا ضم إلى المتوقفين الذين لهم الغلبة العارفون كانت الغلبة العظيمة لغير المعاندين ، ثم إن كثيراً من المعاندين ، إنما يعاندون باللسان ، فأما المعاند فى قلبه بينه وبين نفسه فذلك مما لا يكون أو إن كان فهو فى غاية الندرة والقلة ، ثم إن الإنسان إذا سمع التخويف بأنه (يصلى النار الكبرى) وأنه (لا يموت فيها ولا يحيى) انكسر قلبه فلا بد وأن يستمع وينتفع أغلب الخلق فى أغلب الأحوال ، وأما ذلك المعرض فنادر ، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير ، فمن هذا الوجه كان قوله (فذكر إن نفعت الذكرى) يوجب تعميم التذكير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ السين فى قوله (سيذكر) يحتمل أن تكون بمعنى سوف يذكر وسوف من الله واجب كقوله (سنقرؤك فلا تنسى) ويحتمل أن يكون المعنى أن من خشى الله فانه يتذكر وإن كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر فهو بعد طول المدة يذكر ، والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العلم إنما يسمى تذكراً إذا كان قد حصل العلم أولا ثم نسيه وهذه الحالة غير حاصلة للكفار فكيف سمى الله تعالى ذلك بالتذكر؟ (وجوابه) أن لقوة الدلائل وظهورها كأن ذلك العلم كان حاصلا ، ثم إنه زال بسبب التقليد والعناد ، فلهذا أسماه الله تعالى بالتذكر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قيل نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان ، وقيل نزلت فى ابن أم مكتوم .

أما قوله تعالى ﴿ ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ﴾ فاعلم أنا بينا أن أقسام الخلق ثلاثة العارفون والمتوقفون والمعاندون ، وبينا أن القسمين الأولين ، لا بد وأن يكون لهما خوف وخشية ، وصاحب الخشية لا بد وأن يستمع إلى الدعوة وينتفع بها ، فيكون الأشقى هو المعاند الذى لا يستمع إلى الدعوة ولا ينتفع بها ، فلهذا قال تعالى (ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تفسير النار (الكبرى) وجوهاً (أحدها) قال الحسن : الكبرى نار جهنم ، والصغرى نار الدنيا (وثانيها) أن فى الآخرة نيراناً ودركات متفاضلة كما أن فى الدنيا ذنوباً ومعاصى متفاضلة ، وكما أن الكافر أشقى العصاة كذلك يصلى أعظم النيران (وثالثها)

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى «١٣» قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى «١٤»

أن النار الكبرى هي النار السفلى ، وهي نصيب الكفار على ماقال تعالى (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالوا نزلت هذه الآية في الوليد وعتبة وأبي ، وأنت تعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لاسيما وقد بينا صحة هذا الترتيب بالبرهان العقلي .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لقائل أن يقول إن الله تعالى ذكر ههنا قسمين (أحدهما) الذي يذكر ويخشى (والثاني) الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ، لكن وجود الأشقى ، يستدعي وجود الشقي فكيف حال هذا القسم ؟ (وجوابه) أن لفظة الأشقى لاتقتضي وجود الشقي إذ قد يجري مثل هذا اللفظ من غير مشاركة ، كقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) وقيل المعنى ، ويتجنبها الشقي الذي يصلى كما في قوله (وهو أهون عليه) أي هين عليه ، ومثل قول القائل:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

هذا ما قيل لكن التحقيق ماذكرنا أن الفرق ثلاثة ، العارف والمتوقف والمعاند فالسعيد هو العارف ، والمتوقف له بعض الشقاء والأشقى هو المعاند الذي بينا أنه هو الذي لايلتفت إلى الدعوة ولا يصغى إليها ويتجنبها .

أما قوله تعالى ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ للمفسرين فيه وجهان : (أحدهما) لايموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ، كما قال (لايقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) وهذا على مذهب العرب تقول للمبتلى بالبلاء الشديد لاهو حي ولا هو ميت (وثانيهما) معناه أن نفس أحدهم في النار تصير في حلقه فلا تخرج فيموت ، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما قيل (ثم) لأن هذه الحالة أفظع وأعظم من الصلى فهو متراخ عنه في مراتب الشدة .

أما قوله تعالى ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ ففيه وجهان : (أحدهما) أنه تعالى لما ذكر وعيد من أعرض عن النظر والتأمل في دلائل الله تعالى ، أتبعه بالوعد لمن تزكى وتطهر من دنس الشرك (وثانيهما) وهو قول الزجاج تكثر من التقوى لأن معنى الزاكي النامي الكثير ، وهذا الوجه معتضد بقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون) أثبت الفلاح المستجمعين لتلك الخصال وكذلك قوله تعالى في أول البقرة (وأولئك هم المفلحون) وأما الوجه الأول فانه معتضد بوجهين : (الأول) أنه تعالى لما لم يذكر في الآية ما يجب التزكي عنه علمنا أن المراد هو التزكي عما مر ذكره قبل الآية ، وذلك هو الكفر ، فعلمنا أن المراد ههنا (قد

وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾

أفلح من تزكى) عن الكفر الذى مر ذكره قبل هذه الآية (والثانى) أن الإسم المطلق ينصرف إلى المسمى الكامل ، وأكمل أنواع التزكية هو تزكية القلب عن ظلمة الكفر فوجب صرف هذا المطلق إليه ، ويتأكد هذا التأويل بما روى عن ابن عباس أنه قال معنى (تزكى) قول لا إله إلا الله .

قوله تعالى : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر المفسرون فيه وجوها . (أحدها) قال ابن عباس ذكر معاده وموقفه بين يدى ربه فصلى له . وأقول هذا التفسير متعين وذلك لأن مراتب أعمال المكلف ثلاثة (أولها) إزالة العقائد الفاسدة عن القلب (وثانيها) استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه (وثالثها) الاشتغال بخدمته .

﴿ فالمرتبة الأولى ﴾ هى المراد بالتزكية فى قوله (قد أفلح من تزكى) .

﴿ وثانيها ﴾ هى المراد بقوله (وذكر اسم ربه) فان الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة .

﴿ وثالثها ﴾ الخدمة وهى المراد بقوله (فصلى) فإن الصلاة عبارة عن التواضع والخشوع فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله تعالى وكبريائه ، لابد وأن يظهر فى جوارحه وأعضائه أثر الخضوع والخشوع .

﴿ وثانيها ﴾ قال قوم من المفسرين قوله (قد أفلح من تزكى) يعنى من تصدق قبل مروره إلى العيد (وذكر اسم ربه فصلى) يعنى ثم صلى صلاة العيد بعد ذلك مع الإمام . وهذا قول عكرمة وأبى العالية وابن سيرين وابن عمر وروى ذلك مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا التفسير فيه إشكال من وجهين (الأول) أن عادة الله تعالى فى القرآن تقديم ذكر الصلاة على ذكر الزكاة لا تقديم الزكاة على الصلاة (والثانى) قال الثعلبى هذه السورة مكية بالإجماع ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر . أجاب الواحدى عنه بأنه لا يمتنع أن يقال لما كان فى معلوم الله تعالى أن ذلك سيكون أثنى على من فعل ذلك (وثالثها) قال مقاتل (قد أفلح من تزكى) أى تصدق من ماله وذكر ربه بالتوحيد فى الصلاة فصلى له ، والفرق بين هذا الوجه وما قبله أن هذا يتناول الزكاة والصلاة المفروضتين ، والوجه الأول ليس كذلك (ورابعها) قد أفلح من تزكى ، ليس المراد منه زكاة المال بل زكاة الأعمال أى من تطهر فى أعماله من الرياء والتقصير ، لأن اللفظ المعتاد أن يقال فى المال زكى ولا يقال تزكى قال تعالى (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه) ، (وخامسها) قال ابن عباس (وذكر اسم ربه) أى كبر فى خروجه إلى العيد وصلى صلاة العيد (وسادسها) المعنى وذكر اسم ربه فى صلاته ولا تكون صلاته كصلاة المنافقين حيث يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا .

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفقهاء احتجوا بهذه الآية على وجوب تكبيرة الافتتاح ، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بها على أن تكبيرة الافتتاح ليست من الصلاة ، قال لأن الصلاة معطوفة عليها والعطف يستدعى المغايرة ، واحتج أيضاً بهذه الآية على أن الافتتاح جائز بكل اسم من اسمائه وأجاب أصحابنا بأن تقدير الآية ، وصلى فذكر اسم ربه ولا فرق بين أن تقول أكرمتنى فزرتنى وبين أن تقول زرتنى فأكرمتنى ، ولأبى حنيفة أن يقول : ترك العمل بفاء التعقيب لايجوز من غير دليل (والأولى) فى الجواب أن يقال الآية تدل على مدح كل من ذكر اسم الله فصلى عقيبه وليس فى الآية بيان أن ذلك الذكر هو تكبيرة الافتتاح . فلعل المراد به أن من ذكر الله بقلبه وذكر ثوابه وعقابه دعاه ذلك إلى فعل الصلاة ، فحينئذ يأتى بالصلاة التى أحد أجزائها التكبير ، وحينئذ يندفع الاستدلال .

ثم قال تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ وفيه قراءتان : قراءة العامة بالتاء ويؤكده حرف أبى ، أى بل أنتم تؤثرون عمل الدنيا على عمل الآخرة . قال ابن مسعود : إن الدنيا أحضرت ، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ، وإن الآخرة لغيب لنا وزويت عنا ، فأخذنا بالعاجل وتركنا الآجل . وقرأ أبو عمرو (يؤثرون) بالياء يعنى الأشقى .

ثم قال تعالى ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ وتمامه أن كل ما كان خيراً وأبقى فهو آثر ، فيلزم أن تكون الآخرة آثر من الدنيا وهم كانوا يؤثرون الدنيا ، وإنما قلنا إن الآخرة خير لوجوه (أحدها) أن الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، فالآخرة خير من الدنيا (وثانيها) أن الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام ، والآخرة ليست كذلك (وثالثها) أن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والباقى خير من الفانى .

ثم قال ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى ﴾ واختلفوا فى المشار إليه بلفظ هذا منهم من قال جميع السورة ، وذلك لأن السورة مشتملة على التوحيد والنبوة والوعيد على الكفر بالله ، والوعد على طاعة الله تعالى .

ومنهم من قال بل المشار إليه بهذه الإشارة هو من قوله (قد أفلح من تزكى) إشارة إلى تطهير النفس عن كل ما لا ينبغى . أما القوة النظرية فعن جميع العقائد الفاسدة ، وأما فى القوة العملية فعن جميع الأخلاق الذمية .

وأما قوله (وذكر اسم ربه) فهو إشارة إلى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى ، وأما قوله (فصلى) فهو إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله تعالى .

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى «١٩»

وأما قوله (بل تؤثرون الحياة الدنيا) فهو إشارة إلى الزجر عن الالتفات إلى الدنيا .
وأما قوله (والآخرة خير وأبقى) فهو إشارة إلى الترغيب فى الآخرة وفى ثواب الله تعالى ، وهذه أمور لايجوز أن تختلف باختلاف الشرائع ، فلهذا السبب قال (إن هذا لفى الصحف الأولى) وهذا الوجه كما تأكد بالعقل فالخبر يدل عليه ، روى عن أبى ذر أنه قال : قلت هل فى الدنيا مما فى صحف إبراهيم وموسى ؟ فقال اقرأ ياأبا ذر (قد أفلح من تزكى) وقال آخرون إن قوله هذا إشارة إلى قوله (والآخرة خير وأبقى) وذلك لأن الإشارة راجعة إلى أقرب المذكورات وذلك هو هذه الآية ، وأما قوله (لفى الصحف الأولى) فهو نظير لقوله (وإنه لفى زبر الأولين) وقوله (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا) .
وقوله تعالى ﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ فيه قولان (أحدهما) أنه بيان لقوله (فى الصحف الأولى)و (الثانى) أن المراد أنه مذكور فى صحف جميع الأنبياء التى منها صحف إبراهيم وموسى) روى عن أبى ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال مائة وأربعة كتب ، على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والانجيل والزبور والفرقان ، وقيل إن فى صحف إبراهيم : ينبغى للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلا على شأنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة «الأعلى»

مَكِّيةٌ في قولِ الجمهورِ، وقال الضحَّاكُ: مَدَنِيَّةٌ[1]. وهي تسعَ عَشْرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾

يُستحبُّ للقارئ إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أن يقول عَقِبَه: سبحانَ ربِّي الأَعْلَى؛ قاله النبيُّ ﷺ، وقاله جماعةٌ من الصحابة والتابعين، على ما يأتي.

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه قال: إنَّ لله تعالى مَلَكاً يقال له: حزقيائيل، له ثمانيةَ عَشَرَ ألفَ جَناحٍ، ما بين الجناحِ إلى الجناحِ مَسيرةُ خمسِ مئةِ عام، فخطَر له خاطِرٌ: هل تَقْدِرُ أن تُبْصِر العرشَ جميعَه؟ فزادَه الله أجنحةً مِثْلَها، فكان له ستةٌ وثلاثون ألفَ جناحٍ، ما بين الجناحِ إلى الجناح خمسُ مئةِ عامٍ. ثم أَوْحَى الله إليه: أيُّها المَلَك، أَنْ طِرْ، فطار مقدارَ عشرين ألفَ سنةٍ، فلم يبلغ قائمة[2] من قوائم العرش. ثم ضاعف الله في الأجنحةِ والقوةِ، وأَمَره أن يطير، فطار مقدارَ ثلاثين ألفَ سنةٍ أخرى، فلم يَصِلْ أيضاً، فأَوْحَى الله إليه: أيُّها المَلَك، لو طِرْتَ إلى نفخِ الصورِ مع أَجْنِحَتِك وقوتك لم تبلغ ساقَ عرشي. فقال المَلَك: سبحانَ ربِّي الأعلى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فقال النبيُّ ﷺ: «اجْعَلوها في سُجودكم». ذكره الثعلبيّ في «كتاب العرائس» له[3]. وقال ابن عباس والسُّديُّ: معنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي: عَظِّمْ ربَّك الأعلى. والاسمُ صِلةٌ قُصِد بها تعظيمُ المسمَّى؛ كما قال لَبِيد:

---

(١) حكاه عنه النقاش، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٨، قال ابن عطية: وهو ضعيف، وإنما دعا إليه قولُ مَن قال: إنَّ ذكر صلاة العيد فيها.

(٢) في (م): رأس قائمة.

(٣) ص١٦.

إلى الحَوْلِ ثم اسمُ السلامِ عليكما[١]

وقيل: نَزِّه ربَّك عن السوء، وعمَّا يقولُ فيه المُلْحِدون.

وذكر الطبريّ أنَّ المعنى: نزِّه اسمَ ربِّك عن أن يسمَّى به أحدٌ سواه[٢].

وقيل: نَزِّهْ تَسْمِيةَ ربِّك وذِكْرَكَ إياه، أن تَذْكُره إلَّا وأنت خاشعٌ مُعَظِّمٌ، ولذِكْرِه محترِمٌ. وجعلوا الاسمَ بمعنى التَّسْميةِ[٣]، والأَوْلَى أن يكون الاسمُ هو المسَمَّى. روى نافع عن ابن عمر قال: لا تَقُلْ على اسمِ الله؛ فإنَّ اسمَ الله هو الأعلى[٤].

وروى أبو صالح عن ابن عباس: صَلِّ بأمر ربِّك الأعلى[٥]. قال: وهو أن تقولَ: سبحان ربِّي الأعلى. وروي عن عليٍّ ﷺ وابنِ عباس وابنِ عمر وابنِ الزبير وأبي موسى وعبد الله بن مسعود ﷺ: أنَّهم كانوا إذا افْتَتَحوا قراءةَ هذه السورةِ قالوا: سبحان ربِّيَ الأعلى[٦]؛ امتثالاً لأمره في ابتدائها. فيُختارُ الاقتداءُ بهم في قراءتهم، لا أنَّ سبحان ربِّي الأعلى من القرآن؛ كما قال بعضُ أهلِ الزَّيغ.

وقيل: إنَّها في قراءةِ أُبيٍّ: «سبحان ربِّي الأعلى». وكان ابنُ عمر يقرؤها كذلك[٧].

وفي الحديث كان رسولُ الله إذا قرأها قال: «سبحان ربِّيَ الأعلى». قال أبو بكر

---

(١) وعجزه: ومَن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ، وهو في ديوان لبيد ص٧٩، وسلف ١/ ١٥٣، والكلام من النكت والعيون ٦/ ٢٥١.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥١، وينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٣١١.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣١٠-٣١١، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٥.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٨٤-٣٨٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٥، وذكره أبو الليث ٣/ ٤٦٩ عن الكلبي.

(٦) أخرج هذه الآثار ابن أبي شيبة ٢/ ٥٠٨-٥٠٩، والطبري ٢٤/ ٣٠٩-٣١٠.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٥٢، وأخرج الطبري ٢٤/ ٣٠٩ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه كان يقرأ: «سبح اسم ربك الأعلى سبحان ربي الأعلى الذي خلق فسوى». قال: وهي في قراءة أبي بن كعب كذلك.

الأنباريُّ: حدَّثني محمد بنُ شَهْريار، قال: حدَّثنا حسين بن الأسود، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي حَمَّاد قال: حدَّثنا عيسى بن عمر، عن أبيه، قال: قرأ عليّ بن أبي طالب ﷺ في الصلاة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فقال: سبحان ربِّي الأعلى، فلمَّا انقضت الصلاةُ قيل له: يا أمير المؤمنين، أتَزيدُ هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربِّي الأعلى. قال: لا، إنَّما أُمِرنا بشيءٍ فقُلْتُه(١).

وعن عقبةَ بن عامر الجُهَنيِّ قال: لمَّا نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجْعَلوها في سجودكم»(٢).

وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ الاسم هو المسمَّى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسمِ ربِّي الأعلى.

وقيل: إنَّ أوّلَ مَن قال: سبحان ربي الأعلى، ميكائيلُ عليه السلام. وقال النبيُّ ﷺ لجبريل: «يا جبريلُ، أَخبِرْني بثوابِ مَن قال: سبحان ربِّي الأعلى، في صلاته أو في غيرِ صلاته». فقال: «يا محمدُ، ما مِن مؤمنٍ ولا مؤمنةٍ يقولُها في سجوده أو في غير سجوده، إلَّا كانت له في ميزانه أَثْقلَ من العرش والكرسيِّ وجبالِ الدنيا، ويقول الله تعالى: صَدَقَ عبدي، أنا فوقَ كلِّ شيءٍ، وليس فوقي شيءٌ، اشْهَدوا يا ملائكتي أنِّي قد غَفَرْتُ له، وأَدْخَلْته الجنةَ. فإذا مات زاره مِيكائيلُ كلَّ يومٍ، فإذا كان يومُ القيامةِ حَمَلَه على جناحه، فأَوْقَفه بين يدي الله تعالى، فيقول: ياربِّ، شَفِّعني فيه، فيقول: قد شَفَّعْتُك فيه، فاذهَبْ به إلى الجنة»(٣).

وقال الحسن: «سبِّحِ اسمَ ربِّك الأعلى» أي: صلِّ لربِّك الأعلى. وقيل: أي:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٨ وعزاه لابن الأنباري في المصاحف وللفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وسلف عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الواقعة.

(٣) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٣/ ٢٥٧-٢٥٨ دون قوله: فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه... ، وفي إسناده محمد بن الحسن النقاش المفسر، قال عنه البرقاني: كل حديث النقاش منكر. الميزان ٣/ ٥٢٠.

صلِّ بأسماء الله، لا كما يصلِّي المشركون بالمُكَاءِ والتَّصْدِية.

وقيل: ارْفَعْ صوتك بذِكْرِ ربِّك. قال جرير:

قَبَحَ الإلـهُ وُجـوهَ تَـغْـلِـبَ كـلَّـمـا سَبَحَ الـحـجـيجُ وكَبَّروا تَكْبيرا[١]

قوله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِىٓ أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ قد تقدَّم معنى التَّسْويةِ في «الانفطار» وغيرِها[٢].

أي: سوَّى ماخَلَق، فلم يكن في خَلْقِه تَثْبيج[٣]. وقال الزجَّاج: أي: [خَلَقَ الإنسانَ سَوِيًّا. ومعنى «سوَّى»] عدَّل قامَتَه[٤]. وعن ابن عباس: حَسَّنَ ما خَلَق.

وقال الضحَّاك: خَلَقَ آدمَ فسوَّى خَلْقَه. وقيل: خَلَق في أصلاب الآباءِ، وسوَّى في أرحام الأمَّهات. وقيل: خَلَقَ الأجساد، فسوَّى الأفهام[٥]. وقيل: أي: خَلَق الإنسانَ وهيَّأه للتكليف.

﴿وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قرأ عليٌّ ﷺ والسُّلَميُّ والكسائيُّ: «قَدَر» مخفَّفةَ الدَّالِ، وشدَّد الباقون[٦]. وهما بمعنًى واحدٍ. أي: قدر ووفَّق لكلِّ شَكْلٍ[٧] شَكْلَه، «فَهَدَى» أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٥١ ، والتاج (سبح). وهو في ديوان جرير ١/ ٥٢ برواية:

قبح الإلـه وجـوه تـغـلـب كـلـما شَبَح الـحـجـيـج وكـبـروا إهـلالا

قال محمد بن حبيب شارح الديوان: الشبح: رفع الأيدي بالدعاء، والإهلال: رفع الصوت.

(٢) ينظر ص١٢٣ من هذا الجزء.

(٣) أي: تخليط. اللسان (ثبج).

(٤) الوسيط ٤/ ٤٦٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٥ ، وما بين حاصرتين منهما. وقول الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣١٥ دون قوله: ومعنى سوى...

(٥) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٥٢ .

(٦) السبعة ص٦٨٠ ، والتيسير ص٢٢١ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٦ .

(٧) في (ظ): شيء.

أَرْشَدَ. قال مجاهد: قدَّر الشقاوةَ والسعادةَ، وهَدى للرُّشدِ والضلالة. وعنه[١] قال: هَدَى الإنسانَ للسعادة والشَّقاوة، وهَدَى الأنعامَ لمراعيها.

وقيل: قدَّر أقواتَهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنساً، ولمراعيهم إنْ كانوا وَحْشاً.

وروي عن ابن عباس والسُّديِّ ومقاتلٍ والكلبيِّ في قوله: «فَهَدَى»، قالوا: عَرَّفَ خَلْقَه كيف يأتي الذَّكَرُ الأنثى، كما قال في «طه»: ﴿الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [الآية: ٥٠] أي: الذَّكَرَ للأنثى.

وقال عطاء: جَعَل لكلِّ دابَّةٍ ما يُصْلِحُها، وهداها له[٢].

وقيل: خَلَق المنافعَ في الأشياء، وهدى الإنسانَ لوجه استخراجِها منها.

وقيل «قَدَّر فهدَى»: قدَّر لكلِّ حيوانٍ ما يُصْلِحهُ، فهداه إليه، وعرَّفه وجهَ الانتفاعِ به. يُحكَى أنَّ الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنةٍ عَمِيتْ، وقد أَلْهَمَها الله أنَّ مَسْحَ العينِ بورقِ الرازيانج الغضِّ يردُّ إليها بَصَرَها، فربما كانت في برِّيةٍ بينها وبين الريف مسيرةُ أيامٍ، فتَطوِي تلك المسافة على طولها وعلى عَمَاها، حتى تهجُم في بعض البساتين على شجرةِ الرازيانج لا تخطئُها، فتحكُّ بها عينها وترجع باصرةً بإذن الله تعالى[٣].

وهداياتُ الإنسانِ إلى مالا يُحَدُّ من مصالحه، ومالا يُحْصَرُ من حَوَائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبوابِ دنياه ودِينِه، وإلهاماتُ البهائمِ والطيورِ وهوامِّ الأرضِ بابٌ واسعٌ، وشَوْطٌ بَطِينٌ[٤]، لا يحيطُ به وصفُ واصفٍ؛ فسبحان ربِّي الأعلى.

وقال السُّدِّيُّ: قدَّر مدَّةَ الجنينِ في الرَّحِم تسعةَ أشهرٍ، وأقلَّ وأكثرَ، ثم هداه

(١) بعدها في (ظ): أيضاً.

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٧٩-٨٠ و٢٤/ ٣١١-٣١٢، والنكت والعيون ٦/ ٢٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٥، وزاد المسير ٩/ ٨٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤٣، والرازيانج: نبات يعرف اليوم بالشَّمَر. معجم متن اللغة (رزن).

(٤) أي: بعيد. القاموس (بطن)، والكلام من الكشاف ٤/ ٢٤٣.

للخروج من الرَّحِم[١].

وقال الفراء[٢]: أي: قدَّر فهدى وأضلَّ؛ فاكتفَى بذِكْرِ أحدِهما، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

ويحتملُ أن يكون بمعنى: دعا إلى الإيمان، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: لتَدْعو، وقد دعا الكلَّ إلى الإيمان.

وقيل: «فهدى»، أي: دلَّهم بأفعاله على توحيده، وكونِه عالماً قادراً.

ولا خلافَ أنَّ مَن شدَّد الدال مِن «قدَّر» أنه مِن التقدير، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. ومَن خفَّف، فيحتملُ أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى. ويحتملُ أن يكون من القُدْرة والمُلْك، أي: مَلَكَ الأشياءَ، وهَدَى مَن يشاء.

قلت: وسمعتُ بعضَ أشياخي يقول: «الذي خَلَق فسوَّى والذي قدَّر فهدَى» هو تفسيرُ العلوِّ الذي يليقُ بجلالِ الله سبحانه على جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي: النباتَ والكلأَ الأخضَر. قال الشاعر:

وقد ينْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى وَتبقَى حَزازاتُ النفوسِ كما هِيَا[٣]

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ الغُثاء: ما يَقْذِفُ به السيلُ على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقُماش[٤]. وكذلك الغُثَّاء بالتشديد. والجمع: الأغثاء. قتادة: الغُثَاء:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٥، وزاد المسير ٩/ ٨٨.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٣) البيت لزُفَر بن الحارث الكلابي، كما في مجالس ثعلب ص٣٦٧، والمعاني الكبير ٢/ ٨٤٨، وجمهرة الأمثال ١/ ١٧، وديوان المعاني ٢/ ٢٠٠، والحماسة البصرية ١/ ٢٦. قال العسكري: معناه: أن الدِّمْنة هي الموضع الذي تبرك فيه الإبل، فتبول وتبعر فيه فلا يُنْبِتُ شيئاً، فإذا أصابته السماء وسَفَتْه الرياح أنبت، فيقول: إن ذلك الموضع قد يُنبت بعد أن لم يكن ينبت، فيتغير بالنبات، وتبقى حزازات النفوس لا تتغير.

(٤) القماش: هو ما على وجه الأرض من فتات الأشياء. القاموس (قمش).

الشيء اليابس[١]. ويقال للبقل والحشيش إذا تحطَّم ويَبِس: غُثاءٌ وهَشِيم. وكذلك للَّذي يكون حولَ الماء من القُماش: غثاء، كما قال:

كأنَّ طَمِيَّةَ المُجَيْمِرِ غُدْوةً مِن السَّيْل والأغثاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ[٢]

وحكى أهلُ اللغةِ: غثا الوادي وجفَأ[٣]. وكذلك الماء إذا علاه من الزَّبَد والقُماش مالا يُنتفَعُ به.

والأَحْوى: الأسود، أي: أنَّ النبات يَضْرِبُ إلى الحُوَّة من شدَّة الخضرةِ كالأسود. والحوَّةُ: السَّوَاد؛ قال الأعشى:

لَمْيَاءُ في شَفَتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ وفي اللِّثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ[٤]

وفي «الصحاح»: والحوَّةُ: سُمْرةُ الشَّفةِ. يقال: رجلٌ أَحْوَى، وامرأةٌ حوَّاء، وقد حَوِيَتْ. وبعيرٌ أَحْوَى: إذا خالَطَ خضرتَه سوادٌ وصُفْرةٌ. وتصغيرُ أَحْوَى: أُحَيْوٍ، في لغةِ مَن قال: أُسَيْوِد[٥].

ثم قيل: يجوزُ أن يكون «أَحْوَى» حالاً من «المَرْعَى»، ويكون المعنى: كأنه من

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٧ ، والطبري ٢٤/ ٣١٣-٣١٤ .

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٥ برواية: من السيل والغُثَّاء. ووقع في (ظ): كأن ذرى رأس المجيمر... ، وهو موافق لرواية البيت في شرح المعلقات للنحاس ١/ ٤٨ ، وللتبريزي ص٧٠ . قال التبريزي: روى الأصمعي: كأن طمية المجيمر، والمجيمر أرض لبني فزارة، وطميةُ: جبل في بلادهم، يقول: قد امتلأ المجيمر، فكأن الجبل في الماء فلكة مغزل؛ لِمَا جمع السيلُ حوله من الغثاء. ورواه الفراء: من السيل والأغثاء، جمع الغُثَاء وهو قليل في الممدود.

(٣) في النسخ: وانجفى، والمثبت من المعاجم، وفي الصحاح (جفأ) : جَفَأَ الوادي جَفْأً: إذا رمى بالقذى والزَّبَد

(٤) البيت ليس للأعشى كما ذكر المصنف، وإنما هو لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ٣٢ . قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: اللَّمى: سُمْرةٌ في الشفتين، وكذلك الحُوَّة شبيهة باللمى تضرب إلى السواد، وكذلك اللَّعَس يكون بالشفتين واللثة. والشنب، قال الأصمعي: بردٌ وعذوبة في الأسنان، وغيره يقول: تمديد الأسنان ودقتها، والأول أجود.

(٥) في الصحاح (حوا).

خُضْرته يَضْرِبُ إلى السواد، والتقدير: أَخْرَجَ المرعَى أَحْوَى، فجعله غُثاءً. يقال: قد حَوِيَ النَّبْتُ؛ حكاه الكسائيُّ. وقال:

وغَـيـثٍ مـن الـوسْـمِـيِّ حُـوٌّ تِـلاعُـه تَـبـطَّـنْـتُـه بَـشـيـظَـمَ صَـلَـتـانِ[١]

ويجوزُ أن يكون «أحوى» صفةً لـ «غُثاء». والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته. قال أبو عبيدةَ[٢]: فجعله أسودَ من احتراقه وقِدَمِه؛ والرَّطْبُ إذا يَبِسَ اسْوَدَّ. وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضرَ، ثم لمَّا يَبِسَ اسودَّ[٣]، فصار غُثاءً تذهبُ به الرياحُ والسيول[٤]. وهو مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها[٥].

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي: القرآنَ يا محمدُ، فنُعلِّمُكه ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي: فتحفظُ؛ رواه ابنُ وهبٍ عن مالك[٦]. وهذه بُشْرَى من الله تعالى؛ بشَّره بأنْ أعطاه آيةً بيِّنةً، وهي أنْ يقرأَ عليه جبريلُ ما يَقْرأُ عليه من الوحي، وهو أُميٌّ لا يَكتبُ ولا يقرأ، فيحفظُه ولا ينساه.

وعن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد قال: كان يتذكَّر مخافةَ أنْ يَنْسى[٧]، فقيل:

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٨٧ . قوله: الوسمي، هو مطر الربيع الأول . والتلاع جمع التَّلعة، وهي مسيل الماء، أو ما اتسع من فوهة الوادي، أو القطعة المرتفعة من الأرض. والصَّلَتان: الحديد الفؤاد من الخيل. القاموس (وسم) و(تلع) و(صلت). وقال شارح الديوان: الحوَّة لون يضرب إلى السواد، يصف أن نبات التِّلاع حُوٌّ ناعم ريَّان، فخضرته تضرب إلى السواد، وقوله: تبطَّنته، أي: سلكت بطنه وسرت فيه. والشيظم: الطويل.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٥ .

(٣) بعدها في (م): من احتراقه.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣١٤ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٥٣ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٧ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣١٥ .

كَفَيْتُكَه. قال مجاهد والكلبيُّ: كان النبيُّ ﷺ إذا نزل عليه جبريلُ بالوحي، لم يَفْرَغْ جبريلُ من آخرِ الآيةِ، حتى يتكلَّم النبيُّ ﷺ بأوَّلها مخافةَ أن يَنْساها، فنزلت: «سَنُقْرِئكَ فلا تَنْسَى» بعد ذلك شيئاً[1]، فقد كَفَيْتُكَه.

ووجهُ الاستثناءِ على هذا، ما قاله الفرَّاءُ: إلَّا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئاً، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٨] ولا يشاءُ. ويقال في الكلام: لأُعْطِيَنَّكَ كلَّ ما سألتَ إلَّا ما شئتُ، وإلَّا أنْ أشاء أنْ أمنعكَ، والنيةُ على ألَّا يمنعه شيئاً. فعلى هذا مَجارِي الأيمان؛ يُسْتثنَى فيها ونيةُ الحالفِ التمامُ[2].

وفي روايةِ أبي صالحٍ عن ابن عباس: فلم يَنْسَ بعد نزولِ هذه الآيةِ حتى مات، إلَّا ما شاء الله. وعن سعيد عن قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً، إلَّا ما شاء الله[3]. وعلى هذه الأقوالِ قيل: إلَّا ما شاء اللهُ أن يَنْسَى، ولكنه لم يَنْسَ شيئاً منه بعد نزول هذه الآية.

وقيل: إلَّا ما شاء الله أن يَنْسَى، ثم يَذْكُر بعد ذلك، فإذًا قد نسي، ولكنه يتذكَّر ولا ينسَى نسياناً كُلِّياً. وقد رُوِي أنه أَسْقَطَ آيةً في قراءته في الصلاة، فحسِبَ أُبَيٌّ أنها نُسِخَتْ، فسأله فقال: «نُسِّيتُها»[4].

وقيل: هو من النسيان، أي: إلَّا ما شاء الله أن يُنْسِيَكَ. ثم قيل: هذا بمعنى النسخ، أي: إلَّا ما شاء الله أن يَنْسَخَه. والإنساءُ[5] نوعٌ من النَّسْخ. وقيل: النسيانُ بمعنى التَّرك، أي: يَعْصِمُكَ مِن أنْ تتركَ العملَ به، إلَّا ما شاء الله أن تتركه لنَسْخِه إياه. فهذا في نَسْخِ العملِ، والأوَّلُ في نَسْخِ القراءة.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٦.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣١٥.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٣٦٥)، والبخاري في القراءة خلف الإمام (١٩٣)، والنسائي في الكبرى (٨١٨٣).

(٥) في النسخ: والاستثناء، والمثبت من الوسيط ٤/ ٤٧٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦.

قال الفَرْغانيُّ[١]: كان يَغْشَى مجلسَ الجنيد أهلُ البَسْطِ من العلوم، وكان يغشاه ابنُ كَيْسانَ النحويُّ، وكان رجلاً جليلاً، فقال يوماً: ما تقولُ يا أبا القاسم في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾؟ فأجابه مسرعاً ـ كأنه تقدَّم له السؤالُ قبل ذلك بأوقاتٍ ـ: لا تَنسَى العملَ به. فقال ابن كيسانَ: لا يَفْضُضِ الله فاكَ مِثْلُكَ مَن يُصْدَر عن رأيه[٢].

وقوله: «فلا»: للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي، وإنَّما أُثبتتِ الياء لأنَّ رؤوسَ الآيِ على ذلك[٣]. والمعنى: لا تَغْفَلْ عن قراءته وتَكْرارِه فتنساه، إلَّا ما شاء الله أن يُنْسِيَكَه برفع تلاوته للمصلحة[٤]. والأوَّلُ هو المختار؛ لأنَّ الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلَّا مؤقَّتاً معلوماً. وأيضاً فإنَّ الياء مُثْبتةٌ في جميع المصاحف، وعليها القرَّاءُ.

وقيل: معناه: إلَّا ما شاء الله أن يؤخِّر إنزالَه. وقيل: المعنى: فجعله غثاءً أَحْوى إلَّا ما شاء الله أن يناله بنو آدمَ والبهائمُ، فإنَّه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ أي: الإعلانَ من القول والعمل. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ من السرِّ. وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمد بن حاتم[٥]: يعلم إعلانَ الصدقةِ وإخفاءَها. وقيل: الجهرُ ما حَفِظْتَه من القرآن في صدرك، «وما يَخْفَى» هو ما نُسِخ من صدرك[٦].

﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾: معطوفٌ على «سنُقْرِئك»، وقولُه: «إنَّه يعلمُ الجهرَ وما يَخْفَى»

---

(١) هو أبو جعفر أحمد بن عباد، ولقبه حمدون وهو الغالب عليه، توفي سنة (٢٧٠هـ). تاريخ بغداد ٤/ ٢٧١ و٨/ ١٧٧.

(٢) ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ٢٤٦ عن جعفر بن محمد الخلدي قال: حضرت شيخنا جنيداً، وسأله ابن كيسان... ، وذكر القصة بنحوها.

(٣) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٩ ، والكشاف ٤/ ٢٤٣ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٤٢ ، ويعني بالياء الألف في «تنسى»، والتي أصلها ياء.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٣ .

(٥) لعله محمد بن حاتم بن ميمون المروزي ثم البغدادي السمين، الحافظ المفسِّر، جمع كتاباً في تفسير القرآن، كتبه الناس عنه ببغداد. توفي سنة (٢٣٥هـ). السير ١١/ ٤٥٠ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٥٣ ، وفيه: ... وما يخفى هو ما نسخ من حفظك.

اعتراضٌ. ومعنى ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: للطَّريقة اليُسْرَى؛ وهي عملُ الخير. قال ابن عباس: نيسِّركَ لأنْ تعملَ خيراً. ابن مسعود: «لِلْيُسْرى» أي: للجنة. وقيل: نوفِّقُكَ للشريعة اليُسْرى؛ وهي الحنيفيةُ السَّمْحةُ السَّهْلةُ؛ قال معناه الضحَّاك. وقيل: أي: نهوِّنُ عليك الوحيَ حتى تَحْفَظه وتعملَ به[1].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فَعِظْ قومَكَ يا محمدُ بالقرآن. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: الموعظةُ. وروى يونس عن الحسن قال: تذكرةٌ للمؤمن، وحجةٌ على الكافر. وكان[2] ابن عباس يقول: تنفعُ أوليائي، ولا تنفعُ أعدائي.

وقال الجُرْجانيُّ: التذكيرُ واجبٌ وإنْ لم يَنْفَعْ، والمعنى: فذكِّر إنْ نفعت الذكرى، أو لم تَنْفع، فحذف، كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١][3].

وقيل: إنه مخصوصٌ بأقوامٍ بأعيانهم. وقيل: «إنْ» بمعنى ما، أي: فذكِّر ما نَفَعتِ الذكرى، فتكون «إنْ» بمعنى ما، لا بمعنى الشَّرْطِ؛ لأنَّ الذكرى نافعةٌ بكلِّ حالٍ؛ قاله ابنُ شَجَرة.

وذكر بعضُ أهلِ العربية: أنَّ «إنْ» بمعنى إذْ، أي: إذْ نَفَعْت، كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي: إذ كنتم، فلم يُخْبِرْ بعلُوِّهم إلَّا بعد إيمانهم. وقيل: بمعنى قد.

قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾

أي: مَن يَتَّقي اللهَ ويخافُه. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلتْ في ابنِ أمِّ

---

(١) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٢٥٤، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦.

(٢) في (د): وقال.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٦، والوسيط ٤/ ٤٧٠.

مكتوم[١]. الماوَرْديُّ[٢]: وقد يذَّكَّرُ مَن يرجوه، إلّا أنَّ تَذْكِرةَ الخاشي أبْلَغُ من تذكرة الراجي، فلذلك علَّقها بالخشية دون الرجاء، وإنْ تَعلَّقتْ بالخشية والرجاء.

وقيل: أي: عَمِّمْ أنت التذكيرَ والوَعْظ، وإنْ كان الوعظُ إنَّما ينفعُ مَن يَخْشَى، ولكنْ يحصلُ لك ثوابُ الدعاءِ؛ حكاه القُشيرِيُّ.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: ويتجنَّبُ الذكرى ويبعدُ عنها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي: الشقيُّ في علم الله. وقيل: نزلت في الوليد بنِ المغيرة وعتبةَ بنِ ربيعة[٣].

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: العُظْمَى، وهي السُّفْلى من أطباقِ النار؛ قاله الفرَّاء[٤]. وعن الحسن: الكبرى نارُ جهنم، والصغرى نارُ الدنيا. وقاله يحيى بن سلام[٥].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: لا يموتُ فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياةً تنفعُه، كما قال الشاعر:

أَلَا مَا لِنفسٍ لا تموتُ فينقضِي عَناها ولا تَحيا حياةً لها طَعْمُ[٦]

وقد مضى في «النساء» وغيرِها حديثُ أبي سعيد الخُدْريِّ، وأنَّ الموحِّدين من

---

(١) ذكره الرازي ٣١/ ١٤٦ دون نسبة.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٢٥٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ١٤٩ عن الحسن، والنكت والعيون ٦/ ٢٥٤ عن يحيى بن سلام.

(٦) البيت لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما في مجالس ثعلب ص٢٣٦، والأغاني ٩/ ١٥٠، ومصارع العشاق ١/ ٣٢١، ووقع في هذه المصادر: ألا مَن لنفسي... ، والبيت برواية المصنف في اللسان (طعم).

المذنبين[١] إذا دخلوا جهنم ـ وهي النارُ الصُّغرى على قول الفرَّاء ـ احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يُشفع فيهم. خرَّجه مسلم[٢].

وقيل: أهلُ الشَّقاءِ متفاوتون في شقائهم، وهذا الوعيدُ للأشقى، وإن كانَ ثَمَّ شقيٌّ لا يبلغُ هذه المرتبة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قد صادفَ البقاءَ في الجنة، أي: مَن تَطَهَّر من الشِّرك بالإيمان؛ قاله ابن عباس وعطاءٌ وعكرمة[٣]. وقال الحسن والربيع: مَن كان عملُه زاكياً نامِياً[٤]. وقال مَعْمر عن قتادة: «تزكَّى»، قال: بعملٍ صالح[٥].

وعنه وعن عطاءٍ وأبي العالية: نزلت في صدقة الفِطْرِ. وعن ابن سِيرينَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قال: خرج فصلَّى بعد ما أدَّى. وقال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدِّم زكاتي بين يَدَيْ صلاتي. فقال سفيان: قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾. وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ وابنِ عمر: أنَّ ذلك في صدقة الفطر، وصلاةِ العيد[٦]. وكذلك قال أبو العالية، وقال: إنَّ أهلَ المدينةِ لا يَرَوْنَ

---

(١) في (م): المؤمنين.

(٢) في صحيحه (١٨٥)، وسلف ٦/ ٩٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣١٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥ ، وأخرجه عن الحسن الطبري ٢٤/ ٣١٩ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٧ .

(٦) تنظر أقوالهم في الوسيط ٤/ ٤٧١-٤٧٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦-٤٧٧ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٠ ، والدر المنثور ٦/ ٣٤٠ .

صدقةً أفضلَ منها، ومن سِقاية الماء[١].

وروى كَثير بن عبد الله عن أبيه، عن جدِّه، عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ قال: «أَخْرجَ زكاةَ الفِطْرِ»، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قال: «صلاة العيد»[٢].

وقال ابن عباس والضحاك: «وذَكَر اسمَ ربِّه» في طريقِ المُصَلَّى، «فصلَّى» صلاةَ العيد[٣].

وقيل: المرادُ بالآية زكاةُ الأموالِ كلِّها؛ قاله أبو الأحوص وعطاء[٤]. وروى ابن جُرَيج قال: قلت لعطاء: «قد أَفْلحَ مَن تَزَكَّى» للفِطْر؟ قال: هي للصَّدَقات كلِّها[٥].

وقيل: هي زكاةُ الأعمال، لا زكاةُ الأموال، أي: تطهَّر في أعماله من الرياء والتقصير؛ لأنَّ الأكثر أن يقال في المال: زَكَّى، لا تَزَكَّى. وروى جابر بن عبد الله قال: قال النبيُّ ﷺ: «﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: مَن شَهِدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وخَلَعَ الأندادَ، وشَهِدَ أنِّي رسولُ الله»[٦]. وعن ابن عباس: «تزكَّى»، قال: لا إلهَ إلَّا الله[٧].

وروى عنه عطاءٌ قال: نزلت في عثمان بنِ عفان ﷺ. قال: كان بالمدينة منافقٌ كانت له نخلةٌ مائلةٌ في دار رجلٍ من الأنصار، إذا هبَّتِ الرياحُ أَسْقطَتِ البُسْرَ والرُّطَبَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٢٠ مطولاً.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٢٤٢٠)، والبزار (٣٣٨٣)، وابن عدي ٦/ ٢٠٨٠ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧١ .
وكثير بن عبد الله، قال عنه الحافظ في مختصر زوائد مسند البزار ١/ ٣٩٨ : ضعيف جدًّا.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤٥ عن الضحاك.

(٤) زاد المسير ٩/ ٢٢ عن أبي الأحوص، وسيأتي عن عطاء، وأخرجه عن أبي الأحوص بنحوه الطبري ٢٤/ ٣١٩-٣٢٠ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٠ ، وفيه أن السائل هو عطاء والمسؤول ابن عباس.

(٦) أخرجه البزار (٢٢٨٤-كشف) والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧١ ، وفي إسناده عباد بن أحمد العرزمي، قال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧ : متروك.

(٧) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥)، وهو عند الطبري ٢٤/ ٣١٩ بلفظ: تزكَّى من الشرك.

إلى دار الأنصاريِّ، فيأكلُ هو وعيالهُ، فخاصمه المنافقُ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم بنفاقه، فقال: «إنَّ أخاك الأنصاريَّ ذكر أن بُسْركَ ورُطَبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعيالهُ، فهل لك أنْ أُعطيكَ نخلةً في الجنة بَدَلَها؟» فقال: أبيعُ عاجلاً بآجلٍ! لا أَفْعلُ. فذَكَروا أنَّ عثمان بن عفان أعطاه حائطاً من نخلٍ بَدَلَ نخلته، ففيه نزلتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾. ونزلت في المنافق ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾[1].

وذكر الضحاك: أنَّها نزلت في أبي بكر الصدِّيقِ ﷺ[2].

الثانية: قد ذَكَرنا القولَ في زكاة الفِطْرِ في سورة البقرة مستوفىً[3]. وقد تقدَّم أنَّ هذه السورةَ مكيةٌ، في قول الجمهور، ولم يكن بمكةَ عِيدٌ ولا زكاةُ فِطْرٍ. القشيرِيُّ: ولا يَبْعدُ أن يكون أَثْنَى على مَن يَمتثلُ أمره في صدقة الفِطر وصلاةِ العيد، فيما يأمُر به في المستقبل.

الثالثة: قولهُ تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي: ذَكَر ربَّه. وروى عطاءٌ عن ابن عباس قال: يريدُ ذَكَر مَعَادَه وموقفَه بين يدي اللهِ جلَّ ثناؤه، فعَبَدَه وصلَّى له[4].

وقيل: ذَكَر اسمَ ربِّه بالتكبير في أوّل الصلاة؛ لأنَّها لا تنعقدُ إلَّا بِذِكْره، وهو قولُه: الله أكبر، وبه يُحتَجُّ على وجوب تكبيرةِ الافتتاح، وعلى أنَّها ليست من الصلاة؛ لأنَّ الصلاة معطوفةٌ عليها. وفيه حجةٌ لمن قال: إنَّ الافتتاح جائزٌ بكلِّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ[5]. وهذه مسألةٌ خلافيةٌ بين الفقهاء. وقد مضى القولُ في هذا في أوَّلِ سورة البقرة[6].

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٥ عن عطاء في سبب نزول سورة الليل، وفيه: أبو الدحداح، بدل: عثمان. وأخرجه بنحوه مطولاً عن ابن عباس الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٥ في سبب نزول سورة الليل أيضاً.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥ .

(٣) ينظر ما سلف ٢/ ٢٤ و٤/ ٣٦٨ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٥ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٤٥ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٩-١٩١٠ .

(٦) ١/ ٢٦٩ .

وقيل: هي تكبيراتُ العيد؛ قال الضحاك: «وذَكَر اسمَ ربِّهِ» في طريقِ المُصَلَّى، «فصلَّى»، أي: صلاةَ العيد(١).

وقيل «وذكر اسم ربِّهِ» هو أنْ يَذْكُره بقلبه عند صلاته، فيخافُ عقابَه، ويرجو ثوابَه؛ ليكون استيفاؤه لها، وخشوعُه فيها، بحَسَبِ خوفه ورجائه(٢).

وقيل: هو أنْ يفتتحَ أوّلَ كلِّ سورةٍ ببسم الله الرحمن الرحيم(٣). «فصلَّى» أي: فصلَّى وذكر. ولا فَرْقَ بين أن تقول: أكْرمتني فزُرْتني، وبين أن تقول: زُرْتَني فأكْرَمْتني. قال ابن عباس: هذا في الصلاة المفروضة، وهي الصلواتُ الخمس(٤). وقيل: الدعاء، أي: دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة. وقيل: صلاة العيد؛ قاله أبو سعيد الخُدرِيُّ وابنُ عمر وغيرهما. وقد تقدَّم(٥).

وقيل: هو أن يتطوَّع بصلاةٍ بعد زكاته؛ قاله أبو الأحوص(٦)، وهو مقتضى قولِ عطاء. ورُوِيَ عن عبد الله قال: مَن أقام الصلاةَ ولم يُؤْتِ الزكاةَ فلا صلاةَ له(٧).

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾

قراءة العامة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ بالتاء، تصديقُه قراءةُ أبيٍّ: «بل أنتم تُؤْثِرون»(٨). وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم: «بل يؤثِرون» بالياء على الغيبة(٩)، تقديرهُ: بل يؤثِرُون

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٥ ، وسلف في المسألة الأولى.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٢١ .

(٥) في المسألة الأولى.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣١٩-٣٢٠ .

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩٧٤).

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٧ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٢ عن ابن مسعود ﷺ.

(٩) السبعة ص٦٨٠ ، والتيسير ص٢٢١ عن أبي عمرو.

الأَشْقَونَ الحياةَ الدنيا[١]. وعلى الأوّل فيكونُ تأويلُها: بل تُؤْثرون أيُّها المسلمون الاستكثارَ من الدنيا على الاستكثار[٢] من الثواب.

وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية، فقال: أَتَدْرون لم آثَرْنا الحياةَ الدنيا على الآخرة؟ لأنَّ الدنيا حَضَرتْ وعُجِّلَتْ لنا طيباتُها، وطعامُها وشرابُها، ولذَّاتُها وبَهْجَتُها، والآخرة غُيِّبَتْ عنَّا. فأَخَذْنا العاجلَ، وتَرَكْنا الآجِلَ[٣].

وروى ثابتٌ عن أنسٍ قال: كُنَّا مع أبي موسى في مَسِيرٍ، والناسُ يتكلَّمون ويَذْكُرون الدنيا. قال أبو موسى: يا أنس، إنَّ هؤلاء يكادُ أحدُهم يَفْرِي الأديمَ بلسانه فَرْياً، فتعال فلْنَذْكُر ربَّنا ساعةً. ثم قال: يا أنس، ما ثَبَرَ الناس! ما بَطَّأ بهم؟ قلت: الدُّنيا والشيطانُ والشهواتُ. قال: لا، ولكنْ عُجِّلَتِ الدنيا، وغُيِّبت الآخرة، أمَا واللهِ لو عاينوها ما عَدَلوا ولا مَيَّلوا[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾

أي: والدارُ الآخرةُ، أي: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أفضلُ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أَدْوَمُ من الدنيا. وقال النبيُّ ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلَّا كما يضعُ أحدُكم أصبعَه في اليمِّ، فلْيَنْظُرْ بِمَ يرجع» صحيح. وقد تقدم[٥]. وقال مالك بنُ دينارٍ: لو كانت الدنيا من ذهبٍ يَفْنَى، والآخرةُ من خزفٍ يبقَى، لكان الواجبُ أنْ يُؤْثَر خزفٌ يبقَى على ذهبٍ يفنَى.

---

(١) يعني أنه مردود على الأشقى في قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾.

(٢) في النسخ: للاستكثار، بدل: على الاستكثار، والمثبت من اللباب ٢٠/٢٨٦ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٣٢٢ ، والطبراني في الكبير (٩١٤٧). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/٣٨٦ ، وأحمد في الزهد ص٢٤٧ ، وأبو نعيم في الحلية ١/٢٥٩ .

قوله: يفري الأديم، الفَرْي: الشَّق، والأديم: الجلد. القاموس (أدم) و(فري).

وقوله: ما ثبر الناس، أي: مالذي صدَّهم ومنعهم. قوله: ما عدلوا، أي: ما ساوَوا بها شيئاً. ولا ميَّلوا، أي: ما شكُّوا ولا تردَّدوا. النهاية (ثبر) و(ميل).

(٥) ٥/٤٨١ ، وهو في صحيح مسلم (٢٨٥٨).

قال: فكيف والآخرةُ من ذهبٍ يبقَى، والدنيا من خزفٍ يفنَى!

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال قتادة وابنُ زيد: يريد قولَه: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وقالا: تتابعتْ كتبُ اللهِ جلَّ ثناؤه ـ كما تسمعون ـ أنَّ الآخرة خيرٌ وأبقَى من الدنيا[(١)].

وقال الحسن: «إِنَّ هذا لَفي الصحفِ الأُولى» قال: كُتُبِ الله جلَّ ثناؤه كلِّها[(٢)].

الكلبيُّ: «إِنَّ هذا لفي الصُّحفِ الأُولى»: من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلى آخر السورة[(٣)]؛ لحديثِ أبي ذرٍّ على ما يأتي.

ورَوى عِكرمةُ عن ابن عباس: «إِنَّ هذا لفي الصحف الأولى» قال: هذه السورة[(٤)].

وقال الضحاك: إنَّ هذا القرآنَ لفي الصُّحُفِ الأُولى[(٥)]، أي: الكتبِ الأُولى.

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ يعني الكتبَ المنزلةَ عليهما. ولم يُرِدْ أنَّ هذه الألفاظَ بعينها في تلك الصحف، وإنَّما هو على المعنى، أي: إنَّ معنَى هذا الكلامِ واردٌ في تلك الصُّحف. وروى الآجُرِّيُّ من حديثِ أبي ذرٍّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، فما كانت صحفُ إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلُّها: أيها الملكُ المتسلِّطُ المُبْتَلَى المغرورُ، إنِّي لم أَبْعثْكَ لتَجْمَعَ الدنيا بعضَها على بعضٍ، ولكنْ بَعثْتُكَ لتردَّ عني دعوةَ المظلوم، فإنِّي لا أردُّها ولو كانت من فمِ كافرٍ. وكان فيها أمثالٌ: وعلى العاقلِ أن يكون له ساعاتٌ: ساعةٌ يُناجي فيها ربَّه، وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَه، يفكِّر فيها في صُنْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ

---

(١) أخرجه قولهما الطبري ٢٤/ ٣٢٤-٣٢٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤١.

(٣) ذكره الطبري ٢٤/ ٣٢٥ واختاره.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٠٤)، وسعيد بن منصور، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤١.

(٥) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٠ وقال: قول ضعيف؛ لأنه باطل قطعاً.

إليه، وساعةٌ يخلو فيها لحاجته من المَطْعَم والمَشْرَب. وعلى العاقل ألَّا يكون ظاعنًا إلَّا في ثلاثٍ: تزوُّدٌ لمعَادٍ، وَمَرمَّةٌ لمعاشٍ، ولذةٌ في غير محرَّمٍ. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مُقْبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومَن عدَّ[1] كلامَه من عمله قلَّ كلامُه إلَّا فيما يعنيه». قال: قلتُ : يا رسول الله، فما كانت صحفُ موسى؟ قال: «كانت عِبراً كلُّها : عجِبْتُ لمن أَيْقَنَ بالموت كيف يفرح! وعجبتُ لمن أيقنَ بالقَدَر كيف ينْصَب! وعجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئنُّ إليها! وعجبتُ لمن أيقنَ بالحساب غداً ثم هو لا يعمل!» قال: قلتُ: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيءٌ ممَّا كان في يَدَيْ إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم، اقرأ يا أبا ذرّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ . بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾. وذَكَر الحديث[2].

---

(١) في المصادر: ومن حسب.

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٦١) مطولاً، وفي إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال عنه أبو حاتم: كذاب، كما في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢-١٤٣ . وأخرجه ابن عدي ٧/ ٢٦٩٩ ، وابن عساكر في تاريخه ٢٣/ ٢٧٨ بإسناد آخر عن أبي ذر، وفيه يحيى بن سعد السعدي عن ابن جريج، قال ابن عدي: هذا حديث منكر من هذا الطريق عن ابن جريج، ويحيى بن سعد هذا يعرف بهذا الحديث.

تفسير سورة سبح

وهى مكية .

والدليلُ على ذلك ما رواه البخارى : حدثنا عبدان : أخبرنى أبى ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق، عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مصعب بن عمير وابنُ أمّ مكتوم ، فجعلا يُقرئاننا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين. ثم جاء النبى ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله قد جاء ، فما جاء حتى قرأت : ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ فى سُوَر مثلها [١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا إسرائيل ، عن ثُوَيْر بن أبى فاختَةَ ، عن أبيه ، عن على قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ . تفرد به أحمد [٢] .

وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صَلّيت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر ، عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن أبيه ، عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيدين بـ ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ ، و ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ** ﴾ ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا [٤] .

هكذا وقع فى مسند الإمام أحمد إسناد هذا الحديث . وقد رواه مسلم ــ فى صحيحه ــ وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث أبى عَوَانة وجرير وشعبة ، ثلاثتهم عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر ، عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن النعمان بن بشير ، به [٥]. قال الترمذى : « وكذا رواه الثورى ومسعر ، عن إبراهيم ــ قال : ورواه سفيان بن عيينة عن إبراهيم ــ عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن أبيه ، عن النعمان . ولا يعرف لحبيب رواية عن أبيه » .

وقد رواه ابن ماجة عن محمد بن الصباح ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن المنتشر ، عن أبيه عن حبيب بن سالم ، عن النعمان به [٦] . كما رواه الجماعة ،والله أعلم .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٤١) .

(٢) المسند (١/ ٩٦١) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٦) : « فيه ثوير بن أبى فاختة وهو متروك » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٧) وصحيح مسلم برقم (٤٦٥) .

(٤) المسند (٤/ ٢٧١) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وسنن أبى داود برقم (١١٢٢) وسنن الترمذى برقم (٥٣٣) وسنن النسائى (٣/ ١١٢) .

(٦) سنن ابن ماجة برقم (١٢٨١) .

ولفظ مسلم وأهل السنن: كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾، و﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ** ﴾ ، وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما .

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن أبْزَى ، وعائشة أم المؤمنين : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الوتر بـ ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ ، و ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ﴾ ، و ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ ـ زادت عائشة : والمعوذتين [١] .

وهكذا رُوِى هذا الحديث ـ من طريق ـ جابر وأبى أمامَة صُدَىّ بن عجلان ، وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حصين ، وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهم [٢] . ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تيسر من أسانيد ذلك ومتونه ولكن فى الإرشاد بهذا الاختصار كفاية ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ⑤ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ⑥ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ⑦ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ⑧ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ⑨ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ⑩ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ⑪ الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ⑫ ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ⑬ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى ـ يعنى ابن أيوب الغافقى ـ حدثنا عمى إياس بن عامر ، سمعت عقبة بن عامر الجهنى لما نزلت : ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** ﴾ [الواقعة: ٧٤ ، ٩٦] ، قال لنا رسول الله ﷺ : « اجعلوها فى ركوعكم » . فلما نزلت : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ قال : « اجعلوها فى سجودكم » .

ورواه أبو داود وابن ماجة ، من حديث ابن المبارك ، عن موسى بن أيوب ، به [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ،حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مسلم البَطِين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ ، قال: « سبحان ربى الأعلى » .

وهكذا رواه أبو داود عن زُهَير بن حرب ، عن وكيع ، به [٤]. وقال : « خولف فيه وكيع ،

---

(١) حديث أبى بن كعب فى المسند (٥/ ١٢٣) وحديث ابن عباس فى المسند (١/ ٢٩٩) وحديث ابن أبزى فى المسند (٣/ ٤٠٦) وحديث عائشة فى المسند (٦/ ٢٢٧) .

(٢) وقد توسع الحافظ ابن حجر فى ذكر طرق هذا الحديث والكلام عليها فى كتابه تلخيص الحبير (٢/ ١٩) .

(٣) المسند (٤/ ١٥٥) وسنن أبى داود برقم (٨٦٩) وسنن ابن ماجة برقم (٨٨٧) .

(٤) المسند (١/ ٢٣٢) وسنن أبى داود برقم (٨٨٣) .

رواه أبو وكيع وشعبة ، عن أبى إسحاق ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، موقوفا » .

وقال الثورى ، عن السدى ، عن عبد خير قال : سمعت عليا قرأ [١] : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ ، فقال : سبحان ربى الأعلى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُمَيد ، حدثنا حكَّام عن عَنْبَسة ، عن أبى إسحاق الهَمْدانى : أن ابن عباس كان إذا قرأ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، يقول: سبحان ربى الأعلى ، وإذا قرأ : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة:١] فأتى على آخرها : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٤٠] يقول : سبحانك وبلى [٢] .

وقال قتادة : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ : ذُكِرَ لنا أن نَبِىَّ الله ﷺ كان إذا قرأها ، قال : «سبحان ربى الأعلى » .

وقوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أى : خلق الخليقة وسَوَّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات .

وقوله : ﴿ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ : قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها .

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠] أى : قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ،كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عبد الله ابن عَمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قَدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » [٣] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴾ أى : من جميع صنوف النباتات والزروع ، ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ : قال ابن عباس : هشيما متغيرا . وعن مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، نحوه .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب [٤] يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى أحوى ، أى : أخضر إلى السواد ، فجعله غثاء بعد ذلك . ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملا إلا أنه غير صواب ؛لمخالفته أقوال أهل التأويل.

وقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أى : يا محمد ﴿ فَلا تَنسَىٰ ﴾ . وهذا إخبار من الله، عز وجل ،ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ، ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ . وهذا اختيار ابن جرير .

وقال قتادة : كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئا إلا ما شاء الله .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ فَلا تَنسَى ﴾ : طلب ، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من

---

(١) فى أ : « يقرأ » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/٩٦) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) .

(٤) فى أ : « بكلام العربية » .

النسخ، أى : لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه ؛ فلا عليك أن تتركه .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ أى : يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شىء .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أى : نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ،ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا ، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر .

وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى : ذكِّر حيث تنفع التذكرة . ومن هاهنا [١] يؤخذ الأدب فى نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه : ما أنت بمحدِّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم . وقال : حدِّث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكَذَّب اللهُ ورسوله ؟!

وقوله : ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ أى : سيتعظ بما تبلغه ــ يا محمد ــ من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ أى : لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ،بل هى مضرة عليه ؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب ، وأنواع النكال .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن أبى عدى ، عن سليمان ــ يعنى التيمى ــ عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها لا[٢] يموتون ولا يحيون ، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم فى النار فيدخل عليهم الشفعاء [٣] ، فيأخذ الرجلُ أنصاره فينبتهم ــ أو قال : ينبتون ــ فى نهر الحياء ــ أو قال : الحياة ــ أو قال : الحيوان ــ أو قال: نهر الجنة فينبتون ــ نبات الحبَّة فى حميل السيل » . قال : وقال النبى ﷺ : « أما ترون الشجرة تكون خضراء ، ثم تكون صفراء أو قال : تكون صفراء ثم تكون خضراء ؟ » .قال : فقال بعضهم : كأن النبى ﷺ كان بالبادية [٤] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا إسماعيل، حدثنا سعيد بن يزيد ،عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس ــ أو كما قال ــ تصيبهم النار بذنوبهم ــ أو قال : بخطاياهم ــ فيميتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة ، فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فَنَبتوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا أهل الجنة ، اقبضوا عليهم . فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل » . قال : فقال رجل من القوم حينئذ : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية .

ورواه مسلم فى حديث بشر بن المفضل [٥] وشعبة ، كلاهما عن أبى مَسْلَمة سعيد بن زيد ، به

---

(١) فى م : « ومن هذا » . (٢) فى أ : « فإنهم لا » . (٣) فى أ : « الشفاعة » .
(٤) المسند (٣/٥) .
(٥) فى أ : « الفضل » .

مثله [١]. ورواه أحمد أيضا عن يزيد ، عن سعيد بن إياس الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال : « إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة ، حتى يصيروا فحماً ، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة ، أو : يرش [٢] عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبَّة فى حَميل السيل» [٣] .

وقد قال الله إخبارا عن أهل النار : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦] . إلى غير ذلك من الآيات فى هذا المعنى .

﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ أى : طهَّر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على رسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ أى : أقام الصلاة فى أوقاتها ؛ ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتثالا لشرع الله . وقد قال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن أحمد العرزمى ، حدثنا عمى محمد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عطاء بن السائب ،عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبى ﷺ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾، قال : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله » ، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ قال : « هى الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها » .

ثم قال[٤]: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه [٥] .

وكذا قال ابن عباس : إن المراد بذلك الصلوات الخمس . واختاره ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنى عَمرو بن عبد الحميد الآملى [٦] ، حدثنا مروان بن معاوية ،عن أبى خلدة قال: دخلت على أبى العالية فقال لى : إذا غدوت غداً إلى العيد فمرّ بى . قال : فمررت به فقال: هل طعمت شيئا ؟ قلت: نعم. قال: أفضت على نفسك من الماء؟ قلت: نعم . قال : فأخبرنى ما فعلت بزكاتك ؟ قلت : وكأنك قُلت : قد وَجّهتهَا ؟ قال : إنما أردتك لهذا . ثم قرأ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾. وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء .

(١) المسند (٣/ ١١) وصحيح مسلم برقم (١٨٥) .

(٢) فى م : « فيرش » .

(٣) المسند (٣/ ٢٠) .

(٤) فى م : « وقال » .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٨٤) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٧) :« رواه البزار عن شيخه عباد بن أحمد العرزمى وهو متروك » .

(٦) فى أ : « الأيلى » .

قلت : وكذلك روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة ، فليقدم بين يدى صلاته زكاته ، فإن الله يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ :زكى ماله وأرضى خالقه.

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : تقدمونها على أمر الآخرة ، وتبدونها على ما فيه نفعهم وصلاحهم فى معاشهم ومعادهم ، ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أى : ثواب الله فى الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دنيَّة فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريبا ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد ؟!

قال الإمام أحمد : حدثنا حُسَين بن محمد ، حدثنا ذُوَيد ، عن أبى إسحاق ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دَارُ من لا دارَ له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » [(١)] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا أبو حمزة ، عن عطاء ، عن عَرْفَجة الثقفى قال : استقرأت ابن مسعود : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ فلما بلغ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزُوِيت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل [(٢)] .

وهذا منه على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث [(٣)] هو ، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمى ، حدثنا إسماعيل بن جعفر ، أخبرنى عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب بن عبد الله ، عن أبى موسى الأشعرى : أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومَن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقَى على ما يفنى » . تفرد به أحمد .

وقد رواه أيضا عن أبى سلمة الخزاعى ، عن الدراوردى ، عن عمرو بن أبى عمرو ، به مثله سواء [(٤)] .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ : قال الحافظ أبو بكر البزار :

---

(١) المسند (٦/ ٧١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٨٨) : « رجاله رجال الصحيح غير ذويد وهو ثقة » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٠٠) .

(٣) فى أ : « من جنسه » .

(٤) المسند (٤/ ٤١٢) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٤٧٣) « موارد » من طريق يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو به .

حدثنا نصر بن على ، حدثنا مُعتمر بن سليمان ، عن أبيه عن عطاء بن السائب ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ قال النبى ﷺ: « كان كل هذا ــ أو : كان هذا ــ فى صحف إبراهيم وموسى » [١] .

ثم قال : لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس غير [٢] هذا، وحديثا آخر أورده قبل هذا .

وقال النسائى : أخبرنا زكريا بن يحيى ، أخبرنا نصر بن على ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال : كلها فى صحف إبراهيم وموسى ، فلما نزلت : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٧] قال : وفَّى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨] [٣] .

يعنى أن هذه الآية كقوله فى سورة « النجم »: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ . وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٣٦ : ٤٢] . . . الآيات إلى آخرهن. وهكذا قال عكرمة ــ فيما رواه ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مِهْران ، عن سفيان الثورى ، عن أبيه ، عن عكرمة ــ فى قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ ، يقول : الآيات التى فى سبح اسم ربك الأعلى .

وقال أبو العالية : قصة هذه السورة فى الصحف الأولى .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، ثم قال : ﴿إِنَّ هَٰذَا ﴾ أى : مضمون هذا الكلام ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [٤] .

وهذا اختيار حسن قوى . وقد رُوى عن قتادة وابن زيد ، نحوُه . والله أعلم .

آخر تفسير سورة « سبح » ولله الحمد والمنة

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٦٨) .

(٢) فى أ : « نحو » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٨٥) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٣٧/٧) : « فيه عطاء بن السائب وقد اختلط ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٤) تفسير الطبرى (١٠١/٣٠) .

٨٧ – سورة الأعلى
(مكية وهى تسع عشرة آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٨٧ الأعلى

ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ٨٧ الأعلى

وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ٨٧ الأعلى

كما قاله قتادة قال أبو عبيدة هو فى الأصل تصغير رود بالضم وأنشد كأنها ثمل تمشى على رود أى على مهل وقيل تصغيراً رواد مصدراً رود بالترخيم وله فى الاستعمال وجهان آخران كونه اسم فعل نحو رويداً زيد وكونه حالا نحو سار القوم رويداً أى متمهلين وفى إيراد البدل بصيغة لاتحتمل التكثير وتقييده برويداً على أحد الوجهين المذكورين من تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسكين قلبه مالا يخفى . وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات والله أعلم .

﴿ سورة الأعلى مكية وآيها تسع عشرة ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (سبح اسم ربك الأعلى) أى نزه اسمه عز وجل عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة وعن إطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه وعن ذكره لاعلى وجه الإعظام والإجلال والأعلى إما صفة للرب وهو الأظهر أو للاسم وقرىء سبحان ربى الأعلى وفى الحديث لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها فى ركوعكم فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها فى سجودكم وكانوا يقولون فى الركوع اللهم لك ركعت وفى السجود اللهم لك سجدت

٢ (الذى خلق فسوى) صفة أخرى للرب على الوجه الأول ومنصوب على المدح على الثانى لئلا يلزم الفصل بين الموصوف والصفة بصفة غيره أى خلق كل شىء فسوى خلقه بأن جعل له مابه يتأتى كماله ويتسنى معاشه وقوله تعالى

٣ (والذى قدر) إما صفة أخرى للرب كالموصول الأول أو معطوف عليه وكذا حال مابعده قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها

* (فهدى) أى فوجه كل واحد منها إلى مايصدر عنه وينبغى له طبعاً أو اختياراً ويسره لما خلق له بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وإنزال الآيات ولو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات

وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ ٨٧ الأعلى

فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ ٨٧ الأعلى

سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ٨٧ الأعلى

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ ٨٧ الأعلى

لرأيت كل منها ماتحار فيه العقول يروى أن الأفعى إذا بلغت ألف سنة عميت وقد ألهمها الله تعالى أن تمسح عينها بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها فربما كانت عند عروض العمى لها فى برية بينها و بين الريف مسافة طويلة فتطويها حتى تهجم فى بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك عينها بورقها و ترجع باصرة بإذن الله عز وجل ويروى أن التمساح لا يكون له دبر وإنما يخرج فضلات ما يأكله من فمه حيث قيض الله له طائراً قدر غذاؤه من ذلك فإذا رآه التمساح يفتح فمه فيدخله الطائر فيأكل ما فيه وقد خلق الله تعالى له من فوق منقاره ومن تحته قرنين لئلا يطبق عليه التمساح فمه هذا وأما فنون هداياته سبحانه وتعالى للإنسان من حيث الجسمية ومن حيث الحيوانية لاسيما من حيث الإنسانية

٤ فما لايحيط به فلك العبارة والتحرير ولا يعلمه إلا العليم الخبير (والذى أخرج المرعى) أى أنبت

٥ مايرعاه الدواب غضاً طرياً يرف (فجعله) بعد ذلك (غثاء أحوى) أى دريناً أسود وقيل أحوى

٦ حال من المرعى أى أخرجه أحوى من شدة الخضرة والرى فجعله غثاء بعد ذلك وقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى) بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم إثر بيان هدايته تعالى العامة لكافة مخلوقاته وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحى وحفظ القرآن الذى هو هدى للعالمين وتوفيقه عليه الصلاة والسلام لهداية الناس أجمعين والسين إما للتأكيد وإما لأن المراد اقراء ماأوحى الله إليه حينئذ وما سيوحى إليه بعد ذلك فهو وعد كريم باستمرار الوحى فى ضمن الوعد بالإقراء أى سنقرئك مانوحى إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام أو سنجعلك قارئا بإلهام القراءة فلا تنسى أصلا من قوة الحفظ والإتقان مع أنك أمى لاتدرى ماالكتاب وما القراءة ليكون ذلك آية أخرى لك مع مافى تضاعيف ماتقرؤه من الآيات البينات من حيث الإعجاز ومن حيث الإخبار بالمغيبات وقيل فلا تنسى نهى والألف لمراعاة الفاصلة كما فى قوله تعالى فأضلونا السبيلا وقوله

٧ تعالى (إلا ماشاء الله) استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أى لاتنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء إلا ماشاء الله أن تنساه أبداً بأن نسخ تلاوته والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة والإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المستتبعة لسائر الصفات وقيل المراد به النسيان فى الجملة على القلة والندرة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام أسقط آية فى قراءته فى الصلاة فحسب أبى أنها نسخت فسأله فقال عليه الصلاة

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ٨٧ الأعلىٰ

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ٨٧ الأعلىٰ

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ٨٧ الأعلىٰ

والسلام نسيتها وقيل نفي النسيان رأساً فإن القلة قد تستعمل فى النفى فالمراد بالنسيان حينئذ النسيان بالكلية إذ هو المنفى رأساً لا ماقد ينسى ثم يذكر (إنه يعلم الجهر وما يخفى) تعليل لما قبله أى يعلم ماظهر وما بطن من الأمور التى من جملتها ما أوحى إليك فينسى مايشاء إنساءه ويبقى محفوظاً مايشاء إبقاءه لما نيط بكل منهما من مصالح دينكم (ونيسرك لليسرى) عطف على نقرئك كما ينبىء عنه الالتفات إلى الحكاية وما بينهما اعتراض وارد لما ذكر من التعليل وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما فى قوله تعالى ويسر لى أمرى للإيذان[1] بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها كما فى قوله عليه الصلاة والسلام اعملوا فكل ميسر لما خلق له أى نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى فى كل باب من أبواب الدين علماً وتعليما واهتداء وهداية فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحى والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة والسلام وتكميل غيره كما تفصح عنه الفاء فى قوله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى) أى فذكر الناس حسبما يسرناك له بما يوحى إليك واهدهم إلى مافى تضاعيفه من الأحكام الشرعية كما كنت تفعله لابعد ما استتب لك الأمر كما قيل وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طالما كان يذكرهم ويستفرغ فيه غاية المجهود ويتجاوز فى الجد كل حد معهود حرصاً على إيمانهم وما كان يزيد ذلك بعضهم إلا كفراً وعناداً فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يخص التذكير بمواد النفع فى الجملة بأن يكون من يذكره كلا أو بعضاً ممن يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه فى تذكير من لايورثه التذكير إلا عتواً ونفوراً من المطبوع على قلوبهم كما فى قوله تعالى فذكر بالقرآن من يخاف وعيد وقوله تعالى فأعرض عمن تولى عن ذكرنا وقيل هو ذم للمذكرين وإخبار عن حالهم واستبعاد لتأثير التذكير فيهم وتسجيل عليهم بالطبع على قلوبهم كقولك للواعظ عظ المكاسين إن سمعوا منك قصداً إلى أنه مما لايكون والأول أنسب لقوله تعالى (سيذكر من يخشى) أى سيتذكر بتذكيرك من من شأنه أن يخشى الله تعالى حق خشيته أو من يخشى الله تعالى فى الجملة فيزداد ذلك بالتذكير فيتفكر فى أمر ما تذكر به فيقف على حقيته فيؤمن به وقيل إن بمعنى إذ كما فى قوله تعالى وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين أى إذ كنتم وقيل هى بمعنى ما أى فذكر مانفعت الذكرى فإنها لاتخلو

وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٨٧ الأعلى

ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ٨٧ الأعلى

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ٨٧ الأعلى

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ٨٧ الأعلى

وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ٨٧ الأعلى

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ ٨٧ الأعلى

وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ٨٧ الأعلى

عن نفع بكل حال وقيل هناك محذوف والتقدير إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع كقوله تعالى سرابيل
١١ تقيكم الحر قاله الفراء والنحاس والجرجاني والزهراوى (ويتجنبها) أى الذكرى (الأشقى) من
الكفرة لتوغله فى عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن أبى
١٢ ربيعة (الذى يصلى النار الكبرى) أى الطبقة السفلى من طبقات النار وقيل الكبرى نار جهنم والصغرى
١٣ نار الدنيا لقوله عليه الصلاة والسلام ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم (ثم لايموت فيها)
* حتى يستريح (ولا يحيى) حياة تنفعه وثم للتراخى فى مراتب الشدة لأن التردد بين الموت والحياة أفظع
١٤ من الصلى (قد أفلح) أى نجا من المكروه وظفر بما يرجوه (من تزكى) أى تطهر من الكفر والمعاصى
بتذكره واتعاظه بالذكرى أو تكثر من التقوى والخشية من الزكاء وهو النماء وقيل تطهر للصلاة
وقيل تزكى تفعل من الزكاة وكلمة قد لما أن عند الإخبار بسوء حال المتجنب عن الذكرى فى الآخرة
١٥ يتوقع السامع الإخبار بحسن حال المتذكر فيها وينتظره (وذكر اسم ربه) بقلبه ولسانه (فصلى) أقام
الصلوات الخمس كقوله تعالى أقم الصلاة لذكرى أو كبر تكبيرة الافتتاح فصلى وقيل تزكى أى تصدق
١٦ صدقة الفطر وذكر اسم ربه أى كبره يوم العيد فصلى أى صلاته (بل تؤثرون الحياة الدنيا) إضراب
عن مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل إثر بيان مايؤدى إلى الفلاح لاتفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات
العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها والخطاب إما للكفرة فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان
بها والإعراض عن الآخرة بالكلية كما فى قوله تعالى إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا
واطمأنوا بها الآية أو للكل فالمراد بإيثارها ماهو أعم مما ذكروما لايخلو عنه الإنسان غالباً من ترجيح
جانب الدنيا على الآخرة فى السعى وترتيب المبادى والالتفات على الأول لتشديد التوبيخ وعلى الثانى
١٧ كذلك فى حق الكفرة وتشديد العتاب فى حق المسلمين وقرىء يؤثرون بالياء وقوله تعالى (والآخرة

إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ ٨٧ الأعلىٰ

صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ٨٧ الأعلىٰ

خير وأبقى) حال من فاعل تؤثرون مؤكدة للتوبيخ والعتاب أى تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير فى نفسها لما أن نعيمها مع كونه فى غاية مايكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة أبدى لا انصرام له وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات وانقطاعه عما قليل لغاية ظهوره (إن هذا) إشارة إلى ماذكر من قوله تعالى قد أفلح من تزكى وقيل إلى مافى السورة جميعاً (لفى الصحف ١٨ الأولى) أى ثابت فيها معناه (صحف إبراهيم وموسى) بدل من الصحف الأولى وفى إبهامها ووصفها ١٩ بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها مالا يخفى . روى أن جميع ماأنزل الله عز وجل من كتاب مائةوأربعة كتب أنزل على آدم عليه السلام عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف عليهم السلام والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام .

سورة الأعلى

ترتيبها ٨٧ آياتها ١٩

وتسمى سورة سبح، والجمهور على أنها مكية وحكى ابن الفرس عن بعضهم أنها مدنية لذكر صلاة العيد وزكاة الفطر فيها، ورده الجلال السيوطي بما أخرج البخاري وابن سعد وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرآن القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه في عشرين ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به عليه الصلاة والسلام حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء فما جاء عليه الصلاة والسلام حتى قرأت ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ في سور مثلها ثم أن ذكر صلاة العيد وكاة الفطر فيها غير مسلم ولو سلم فلا دلالة فيه على ذلك كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفصيله، وهي تسع عشرة آية بلا خلاف ووجه مناسبتها لما قبلها أنه ذكر في سورة الطارق خلق الإنسان وأشير إلى خلق النبات بقوله تعالي ﴿والأرض ذات الصدع﴾ [الطارق: ١٢] وذكرا ها هنا في قوله تعالى ﴿خلق فسوى﴾ [الأعلى: ٢] وقوله سبحانه ﴿أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى﴾ [الأعلى: ٤، ٥] وقصة النبات هنا أوضح وأبسط كما أن قصة خلق الإنسان هناك كذلك، نعم إن ما في هذه السورة أعم من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات وكان ﷺ يحبها. أخرج الإمام أحمد والبزار وابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ وجاء في حديث أخرجه أبو عبيد عن أبي تميم أنه عليه الصلاة والسلام سماها أفضل المسبحات. وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه والبيهقي عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى ﴿**سبح**﴾ وفي الثانية ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ وفي الثالثة ﴿**قل هو الله أحد**﴾ والمعوذتين وفي حديث أخرجه المذكورون وغيرهم إلاّ الترمذي عن أبيّ بن كعب نحو ذلك بيد أنه ليس فيه المعوذتان. وأخرج ابن أبي شيبة والإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ و ﴿**هل أتاك حديث الغاشية**﴾ وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً. وأخرج الطبراني عن عبد الله بن الحارث قال: آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ المغرب فقرأ في الركعة الأولى بسبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية بقل يا أيها الكافرون.

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ

ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ أي نزه أسماءه عز وجل عما لا يليق فلا تؤول مما ورد منها اسماً من غير مقتضٍ ولا تبقه على ظاهره إذا كان ما وضع له مما لا يصح له تعالى ولا تطلقه على غيره سبحانه أصلاً إذا كان مختصاً كالاسم الجليل أو على وجه يشعر بأنه تعالى والغير فيه سواء إذ لم يكن مختصاً فلا تقل لمن أعطاك شيئاً مثلاً: هذا رازقي على وجه يشعر بذلك، وصنه عن الابتذال والتلفظ به في محل لا يليق به كالخلاء وحالة التغوط وذكره لأعلى وجه الخشوع والتعظيم، وربما يعد مما لا يليق ذكره عند من يكره سماعه من غير ضرورة إليه. وعن الإمام مالك رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا لم يجد ما يعطي السائل يقول: ما عندي ما أعطيك أو ائتني في وقت آخر أو نحو ذلك، ولا يقول نحو ما يقول الناس يرزقك الله تعالى أو يبعث الله تعالى لك أو يعطيك الله تعالى أو نحوه، فسئل عن ذلك فقال: إن السائل أثقل شيء على سمعه وأبغضه إليه قول المسؤول له، ما يفيده رده وحرمانه، فأنا أُجلّ اسم الله سبحانه من أن أذكره لمن يكره سماعه ولو في ضمن جملة وهذا منه رضي الله تعالى عنه غاية في الورع. وما ذكر من التفسير مبني على الظاهر من أن لفظ اسم غير مقحم، وذهب كثير إلى أنه مقحم وهو قد يقحم لضرب من التعظيم على سبيل الكناية ومنه قوله لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

فالمعنى نزه ربك عما لا يليق به من الأوصاف واستدل لهذا بما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ [الواقعة: ٧٤] قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم». ومن المعلوم أن المجهول فيهما سبحان ربي العظيم وسبحان ربي الأعلى وبما أخرج الإمام أحمد وأبو داود والطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى» وروى عبد بن حميد وجماعة أن علياً كرم الله تعالى وجهه قرأ ذلك فقال سبحان ربي الأعلى وهو في الصلاة فقيل له أتزيد في القرآن قال لا إنما أمرنا بشيء ففعلته. وفي الكشاف تسبيح اسمه تعالى تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي إلحاد في أسمائه سبحانه كالجبر والتشبيه مثلاً وأن يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم فجعل المعنيين على ما قيل راجعين إلى الاسم وإن كان الأول بالحقيقة راجعاً إليه عز وجل لكن كما يصح أن يقال نزه الذات عما لا يصح له من الأوصاف أن يقال أيضاً نزه أسماءه تعالى الدالّة على الكمال عما لا يصح فيه من خلافه وليس المعنى الأول مبنياً على أن لفظ اسم مقحم ولا على أن المراد به المسمى اطلاقاً لاسم الدال على المدلول نعم قال به بعضهم هنا وهو إن كان للأخبار السابقة كما في دعوى الإقحام فلا بأس، وإن كان لظن أن التسبيح لا يكون للألفاظ الموضوعة له تعالى فليس بشيء لفساد هذا الظن بظهور أن التسبيح يكون لها كما سمعت وقد قال الإمام إنه كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته حلَّ وعلا عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ

الموضوعة لذلك عن الرفث وسوء الأدب، ومن هذا يعلم ما في التعبير عنه تعالى شأنه بنحو ليلى ونعم كما يدعي ذلك في قول ابن الفارض قدس سره:

أبرق بدا من جانب الغور لامع ... أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

وقوله:

إذا أنعمت نعم عليّ بنظرة ... فلا أسعدت سعدى ولا أجملت جمل

إلى غير ذلك من أبياته وقد عاب ذلك بعض الأجلّة وعدّه من سوء الأدب ومخالفاً لقوله تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ [الأعراف: ١٨٠] الآية وأجاب بعضهم بأن ذلك ليس من الوضع في شيء وفهم الحضرة الإِلهية من تلك الألفاظ إنما هو بطريق الإِشارة كما قالوا في فهم النفس الأمارة من البقرة مثلاً في قوله تعالى ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ [البقرة: ٦٧] والمنكر لا يقنع بهذا والأظهر أن يقال: إن الكلام المورد فيه ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية ولا نظر فيها إلى تشبيه المفردات بالمفردات فليس فيه التعبير عنه عز وجل بليلى ونحوها، واستعمال الاستعارة التمثيلية في شأنه تعالى مما لا بأس به حتى إنهم قالوه في البسملة كما لا يخفى على من تتبع رسائلهم فيها هذا ولعل عندهم خيراً منه. وقال جمع: الاسم بمعنى التسمية والمعنى نزه تسمية ربك بأن تذكره وأنت له سبحانه معظم ولذكره جل شأنه محترم، وأنت تعلم أن هذا يندرج في تسبيح الاسم كما تقدم. وعن ابن عباس أن المعنى صل باسم ربك الأعلى كما تقول: ابدأ باسم الله تعالى، وحذف حرف الجر حكاه في البحر ولا أظن صحته. وقال عصام الدين: لا يبعد أن يراد الاسم الأثر أي سبح آثار ربك الأعلى عن النقصان فإن أثره تعالى دال عليه سبحانه كالاسم فيكون منعاً عن عيب المخلوقات أي من حيث إنها مخلوقة له تعالى على وجه ينافي قوله تعالى ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ [الملك: ٣] ولا يخفى بعده وإن كان فيما بعد من الصفات ما يستأنس به له، وأنا أقول إن كان ﴿**سبح**﴾ بمعنى نزه فكلا الأمرين من كون اسم مقحماً وكونه غير مقحم وتعلق التسبيح به على الوجه الذي سمعت محتمل غير بعيد، وإذا كان معناه قل سبحان كما هو المعروف فيما بينهم فكونه مقحماً متعين إذ لم يسمع سلفاً وخلفاً من يقول سبحان اسم ربي الأعلى أو سبحان اسم الله، والأخبار ظاهرة في ذلك وحمل ما فيها على اختيار الأخصر المستلزم لغيره كما ترى ويؤيد هذا قراءة أبيّ بن كعب كما في خبر سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن جبير «سبحان ربي الأعلى» وأما ما قيل من أن الاسم عين المسمى واستدل عليه بهذه الآية ونحوها فهو مما لا يعول عليه أصلاً وقد تقدم الكلام أول الكتاب فارجع إليه إن أردته و ﴿**الأعلى**﴾ صفة للرب وأريد بالعلو القهر والاقتدار لا بالمكان لاستحالته عليه سبحانه والسلف وإن لم يؤولوه بذلك لكنهم أيضاً يقولون باستحالة العلو المكاني عليه عز وجل وجوز جعله صفة لاسم وعلوه ترفعه عن أن يشاركه اسم في حقيقة معناه. واستشكل بأن قوله تعالى ﴿**الَّذِي خَلَقَ**﴾ الخ إن كان صفة للرب كما هو الظاهر لزم الفصل بين الموصوف وصفته بصفة غيره وهو لا يجوز فلا يقال: رأيت غلام هند العاقل الحسنة، وإن كان صفة لاسم أيضاً اختل المعنى إذ الاسم لا يتصف بالخلق وما بعده. وأجيب باختيار الثاني ولا اختلال إما لأن الاسم بمعنى المسمى، أو لأنه لما كان مقحماً كان ﴿**اسم ربك**﴾ بمنزلة ربك فصح وصفه بما يوصف به الرب عز وجل وفيه نظر والجواب المقبول أن ﴿**الذي**﴾ على ذلك التقدير إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح، ومفعول ﴿**خلق**﴾ محذوف ولذا قيل بالعموم أي

الذي خلق كل شيء ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي فجعله متساوياً وهو أصل معناه والمراد فجعل خلقه كما تقتضيه حكمته سبحانه في ذاته وصفاته وفي معناه ما قيل أي فجعل الأشياء سواء في باب الأحكام والاتقان لا أنه سبحانه أتقن بعضاً دون بعض، وردّ بما دلت عليه الآية من العموم على المعتزلة في زعمهم أن العبد خالق لأفعاله والزمخشري مع أن مذهبه مذهبهم قال هنا بالعموم ولعله لم يرد العموم الحقيقي أو أراده لكن على لمعنى خلق كل شيء إما بالذات أو بالواسطة، وجعل ذلك في أفعال العباد بأقداره سبحانه وتمكينهم على خلقها باختيارهم وقدرهم الموهوبة لهم، وعن الكلبي خلق كل ذي روح فسوّى بين يديه وعينيه ورجليه. وعن الزجاج خلق الإِنسان فعدّل قامته ولم يجعله منكوساً كالبهائم وفي كل تخصيص لا يقتضيه ظاهر الحذف ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ أي جعل الأشياء على مقادير مخصوصة في أجناسها وأنواعها وأفرادها وصفاتها وأفعالها وآجالها ﴿فَهَدَىٰ﴾ فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له طبعاً أو اختياراً ويسره لما خلق له بخلق الميول والإِلهامات ونصب الدلائل وإنزال الآيات، فلو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول وتضيق عنه دفاتر النقول. وأما فنون هداياته سبحانه وتعالى للإِنسان على الخصوص ففوق ذلك بمراحل وأبعد منه ثم أبعد وأبعد بألوف من المنازل وهيهات أن يحيط بها فلك العبارة والتحرير ولا يكاد يعلمها إلاّ اللطيف الخبير:

أتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وقيل أي والذي قدر الخلق على ما خلقهم فيه من الصور والهيئات، وأجرى لهم أسباب معاشهم من الأرزاق والأقوات، ثم هداهم إلى دينه ومعرفة توحيده بإظهار الدلالات والبينات. وقيل قدر أقواتهم وهداهم لطلبها. وعن مقاتل والكلبي قدرهم ذكراناً وإناثاً وهدى الذكر كيف يأتي الأنثى وعن مجاهد قدر الإِنسان والبهائم وهدى الإِنسان للخير والشر والبهائم للمراتع. وعن السدّي قدر الولد في البطن تسعة أشهر أو أقل أو أكثر وهداه للخروج منه للتمام وقيل قدر المنافع في الأشياء وهدى الإِنسان لاستخراجها والأولى ما ذكر أولاً ولعل ما في سائر الأقوال من باب التمثيل لا التخصيص. وزعم الفرّاء أن في الآية اكتفاء والأصل فهدى وأضل وليس بشيء. وقرأ الكسائي «قَدَرَ» بالتخفيف من القدرة أو التقدير ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب غضاً رطباً يرف ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ هو ما ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات، وأصله على ما في المجمع الأخلاط من أجناس شتى والعرب تسمى القوم إذا اجتمعوا من قبائل شتى أخلاطاً وغثاء، ويقال: غثاء بالتشديد وجاء جمعه على أغثاء وهو غريب من حيث جمع فعال على فعال والمراد به هنا اليابس من النبات أي فجعله بعد ذلك يابساً ﴿أَحْوَىٰ﴾ من الحوة وهي كما قيل السواد. وقال الأعلم؛ لون يضرب إلى السواد وفي الصحاح الحوّة السمرة فالمراد بأحوى أسود أو أسمر والنبات إذا يبس اسودّ أو اسمر فهو صفة مؤكدة للغثاء وتفسر الحوة بشدة الخضرة وعليه قول ذي الرمة:

لمياه في شفتيها حوة لعس ... وفي اللثات وفي أنيابها شنب

ولا ينافي ذلك تفسيرها بالسواد لأن شدة الخضرة ترى في بادىء النظر كالسواد، وجوز كونه حالاً من المرعى أي أخرج المرعى حال كونه طرياً غضاً شديد الخضرة فجعله غثاء، والفصل بالمعطوف بين الحال وصاحبها ليس فصلاً بأجنبي لا سيما وهو حال يعاقب الأول من غير تراخ. وسر التقديم المبالغة في استعقاب حالة الجفاف حالة الرفيف والغضارة كأنه قبل أن يتم رفيقه وغضارته يصير غثاء ومع هذا هو خلاف الظاهر وهذه الأوصاف على ما قيل يتضمن كل منها التدريج ففي الوصف بها تحقيق لمعنى التربية وهي تبليغ الشيء كماله شيئاً فشيئاً وقوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ بيان لهدايته تعالى شأنه الخاصة برسوله ﷺ إثر بيان

هدايته عز وجل العامة لكافة مخلوقاته سبحانه وهي هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقي الوحي وحفظ القرآن الذي هو هدى للعالمين وتوفيقه ﷺ لهداية الناس أجمعين. والسين إما للتأكيد وإما لأن المراد إقراء ما أوحي إليه ﷺ حينئذ وما سيوحى إليه عليه الصلاة والسلام بعد فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء وإسناد الإقراء إليه تعالى مجازي أي سنقرئك ما نوحي إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام فإنه عليه السلام الواسطة في الوحي على سائر كيفياته فلا تنسى أصلاً من قوة الحفظ والاتقان مع أنك أمي لم تكن تدري ما الكتاب وما القراءة ليكون ذلك لك آية مع ما في تضاعيف ما تقرؤه من الآيات البينات من حيث الإعجاز ومن حيث الأخبار بالمغيبات، وجوز أن يكون المعنى سنجعل قارئاً بإلهام القراءة أي في الكتاب من دون تعليم أحد كما هو العادة فقد روي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ الكتابة ولا يكتب. ويكون المراد بقوله تعالى ﴿**فلا تنسى**﴾ نفي النسيان مطلقاً عنه عليه الصلاة والسلام وامتناناً عليه ﷺ بأنه أوتي قوة الحفظ وفيه أنه مع كونه خلاف المأثور عن السلف في الآية تأباه فاء التفريع. وجوز أيضاً أن يكون المراد نفي نسيان المضمون أي سنقرئك القرآن فلا تغفل عنه فتخالفه في أعمالك ففيه وعد بتوفيقه عليه الصلاة والسلام لالتزام ما فيه من الأحكام وهو كما ترى. وقيل: فلا تنسى نهي والألف لمراعاة الفاصلة كما في قوله تعالى ﴿وأضلونا السبيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧] وفيه أن النسيان ليس بالاختيار فلا ينهى عنه إلا أن يراد مجازاً ترك أسبابه الاختيارية أو ترك العمل بما تضمنه المقروء وفيه ارتكاب تكلف من غير داع، وأيضاً رسمه بالياء يقتضي أنها من البنية لا للإطلاق وكون رسم المصحف مخالفاً تكلف أيضاً نعم قيل: رسمت ألف الإطلاق ياء الموافقة غيرها من الفواصل وموافقة أصلها مع أن الإمام المرزوقي صرح بأنه عند الإطلاق ترد المحذوفة، وقيل هو نهي لكن لم تحذف الألف فيه إذ قد لا يحذف الجازم حرف العلة وحسن ذلك هنا مراعاة الفاصلة وفيه أيضاً ما فيه والأهون للطالب معنى النهي أن يقول هو خبر أريد به النهي على أحد التأويلين السابقين آنفاً ﴿**إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي لا تنسى أصلاً مما سنقرئكه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه، قيل: أي أبداً قال الحسن وقتادة وغيرهما: وهذا مما قضى الله تعالى نسخه وأن يرتفع حكمه وتلاوته، والظاهر أن النسيان على حقيقته وفي الكشاف أي إلا ما شاء الله فذهب به عن حفظك برفع حكمه وتلاوته وجعل النسيان عليه بمعنى رفع الحكم والتلاوة وكناية عنه لأن ما رفع حكمه وتلاوته يترك فينسى فكأنه قيل بناء على إرادة المعنيين في الكنايات سنقرئك القرآن فلا تنسى شيئاً منه ولا يرفع حكمه وتلاوته إلا ما شاء الله فتنساه ويرفع حكمه وتلاوته أو نحو هذا، وأنا لا أرى ضرورة إلى اعتبار ذلك. والباء في برفع الخ للسببية والمراد إما بيان السبب العادي البعيد للذهاب الله تعالى به عن الحفظ فإن رفع الحكم والتلاوة يؤدي عادة في الغالب إلى ترك التلاوة لعدم التعبد بها وإلى عدم إخطاره في البال لعدم بقاء حكمه وهو يؤدي عادة في الغالب أيضاً إلى النسيان أو بيان السبب الدافع لاستبعاد الذهاب به عن حفظه عليه الصلاة والسلام رهو كالسبب المجوز لذلك، وأيًّا ما كان فلا حاجة إلى جعل معنى ﴿**فلا تنسى**﴾ فلا تترك تلاوة شيء منه والعمل به فتأمل. ثم إنه لا يلزم من كون ما شاء الله تعالى نسيانه مما قضى سبحانه أن يرتفع حكمه وتلاوته أن يكون كل ما ارتفع حكمه وتلاوته قد شاء الله تعالى نسيان النبي ﷺ له فإن من ذلك ما يحفظه العلماء إلى اليوم فقد أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات الحديث. وكونه ﷺ نسي الجميع بعد تبليغه وبقي ما بقي عند بعض من سمعه منه عليه الصلاة والسلام فنقل حتى وصل إلينا بعيد وإن أمكن عقلاً، وقيل: كان ﷺ يعجل بالقراءة إذا

لقنه جبريل عليه السلام فقيل: لا تعجل فإن جبريل عليه السلام مأمور أن يقرأه عليك قراءة مكررة إلى أن تحفظه ثم لا تنساه إلاّ ما شاء الله تعالى ثم تذكره بعد النسيان، وأنت تعلم أن الذكر بعد النسيان وإن كان واجباً إلاّ أن العلم به لا يستفاد من هذا المقام. وقيل: إن الاستثناء بمعنى القلة وهذا جار في العرف كأنه قيل إلاّ ما لا يعلم لأن المشيئة مجهولة وهو لا محالة أقل من الباقي بعد الاستثناء فكأنه قيل فلا تنسى شيئاً إلاّ شيئاً قليلاً. وقد جاء في صحيح البخاري وغيره أنه ﷺ أسقط آية في قراءته في الصلاة وكانت صلاة الفجر فحسب أبي أنها نسخت فسأله عليه الصلاة والسلام، فقال: نسيتها ثم إنه عليه الصلاة والسلام لا يقر على نسيانه القليل أيضاً بل يذكره الله تعالى أو ييسر من يذكره، ففي البحر أنه ﷺ قال حين سمع قراءة عباد بن بشير: «لقد ذكرني كذا وكذا آية في سورة كذا وكذا». وقيل: الاستثناء بمعنى القلة وأريد بها النفي مجازاً كما في قولهم قل من يقول كذا قيل والكلام عليه باب:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

البيت والمعنى فلا تنسى إلا نسياناً معدوماً. وفي الحواشي العصامية على أنوار التنزيل أن الاستثناء على هذا الوجه لتأكيد عموم النفي لا لنقض عمومه. وقد يقال الاستثناء من أعم الأوقات فلا تنسى في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تعالى نسيانك لكنه سبحانه لا يشاء وهذا كما قيل في قوله تعالى في أهل الجنة ﴿خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربك﴾ [هود: ١٠٧] وقد قدمنا ذلك وإلى هذا ذهب الفراء فقال إنه تعالى ما شاء أن ينسى النبي ﷺ شيئاً إلا أن المقصود من الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصيره عليه الصلاة والسلام ناسياً لذلك لقدر عليه كما قال سبحانه ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ [الإسراء: ٨٦] ثم إنّا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك وقال له ﷺ ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥] مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يشرك البتة، وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن يعرف الله تعالى قدرته حتى يعلم ﷺ أن عدم النسيان من فضله تعالى وإحسانه لا من قوته، أي حتى يتقوى ذلك جداً أو ليعرف غيره ذلك وكأن نفي أن يشاء الله تعالى نسيانه عليه الصلاة والسلام معلوم من خارج ومنه آية ﴿لا تحرك بلسانك لتعجل به﴾ [القيامة: ١٦] الآية. وقد أشار أبو حيان إلى ما قاله الفراء وإلى الوجه الذي قبله وأباهما غاية الإباء لعدم الوقوف على حقيقتهما وقال: لا ينبغي أن يكون ذلك في كلام الله تعالى بل ولا في كلام فصيح وهو مجازفة منه عفا الله تعالى عنه، ثم إن المراد من نفي نسيان شيء من القرآن نفي النسيان التام المستمر مما لا يقر عليه ﷺ كالذي تضمنه الخبر السابق ليس كذلك. وقد ذكروا أنه عليه الصلاة والسلام لا يقر على النسيان فيما كان من أصول الشرائع والواجبات وقد يقر على ما ليس منها أو منها وهو من الآداب والسنن ونقل هذا عن الإمام الرازي عليه الرحمة فليحفظ. والالتفات إلى الاسم الجليل على سائر الأوجه لتربية المهابة والإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المستتبعة لسائر الصفات، وربط الآية بما قبلها على الوجه الذي ذكرناه هو الذي اختاره في الإرشاد وقال أبو حيان: إنه سبحانه لما أمره ﷺ بالتسبيح وكان لا يتم إلاّ بقراءة ما أنزل عليه من القرآن وكان ﷺ يتفكر في نفسه مخافة أن ينسى أزال سبحانه عنه ذلك بأنه عز وجل يقرئه وأنه لا ينسى إلا ما شاء أن ينسيه لمصلحة وفيه نظر لا يخفى ولو قيل إن ﴿**سنقرئك**﴾ استئناف واقع موقع التعليل للتسبيح أو للأمر به فيفيد جلالة الإقراء وأنه مما ينبغي أن يقابل بتنزيه الله تعالى وإجلاله كان أهون مما ذكر ونحوه كونه في موقع التعليل على معنى هيىء نفسك للإفاضة عليك بتسبيح الله تعالى لأنّا سنقرئك فلا تنسى إلاّ ما

شاء الله. ويتضمن ذلك الإشارة إلى فضل التسبيح وقد وردت أخبار كثيرة في ذلك وذكر الثعلبي بعضاً منها ونقله ابن الشيخ في حواشيه على تفسير البيضاوي والله تعالى أعلم بصحته.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ تعليل لما قبله و ﴿الجهر﴾ هنا ما ظهر قولاً أو فعلاً أو غيرهما وليس خاصاً بالأقوال بقرينة المقابلة أي إنه تعالى يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور التي من جملتها حالك وحرصك على حفظ ما يوحى إليك بأسره فيقرئك ما يقرئك ويحفظك عن نسيان ما شاء منه وينسيك ما شاء منه مراعاة لما نيط بكل من المصالح والحكم التشريعية، وقيل توكيد لجميع ما تقدمه وتوكيد لما بعده، وقيل توكيد لقوله تعالى ﴿سنقرئك﴾ الخ على أن الجهر ما ظهر من الأقوال أي يعلم سبحانه جهرك بالقراءة مع جبريل عليه السلام وما دعاك إليه من مخافة النسيان فيعلم ما فيه الصلاح من إبقاء وإنساء أو فلا تخف فإني أكفيك ما تخاف وقيل إنه متعلق بقوله تعالى ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ وهذا ليس بشيء كما ترى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ عطف على ﴿سنقرئك﴾ كما ينبيء عنه الالتفات إلى الحكاية وما بينهما اعتراض وارد لما سمعت وتعليق التيسير به ﷺ مع أن الشائع تعليقه بالأمورالمسخرة للفاعل كما في قوله تعالى ﴿ويسر لي أمري﴾ [طه: ٢٦] للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها أي نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علماً وتعليماً واهتداءً وهدايةً فيندرج فيه تيسير تلقى طريقي الوحي والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الآلهية مما يتعلق بتكميل نفسه الكريمة ﷺ وتكميل غيره كما يفصح عنه الفاء فيما بعد كذا في الإرشاد. وقيل: المراد باليسرى الطريقة التي هي أيسر وأسهل في حفظ الوحي، وقيل هي الشريعة الحنيفية السهلة، وقيل الأمور الحسنة في أمر الدنيا والآخرة من النصر وعلو المنزلة والرفعة في الجنة وضم إليها بعض أمر الدين وهو مع هذا الضم تعميم حسن وظاهر عليه أيضاً أمر الفاء في قوله تعالى ﴿فذكّر إنْ نفعت الذّكرَى﴾ أي فذكر الناس حسبما يسرناك بما يوحى إليك واهدهم إلى ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية كما كنت تفعله. وقيل: أي. فذكر بعدما استتب أي استقام وتهيأ لك الأمر فإن أراد فدم على التذكير بعدما استقام لك الأمر من إقرائك الوحي وتعليمك القرآن بحيث لا تنسى منه إلاّ ما اقتضت المصلحة نسيانه وتيسيرك للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين فذاك وإلاّ فليس بشيء، وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما أن رسول الله ﷺ كان قد ذكر وبالغ فيه فلم يدع في القوس منزعاً وسلك فيه كل طريق فلم يترك مضيفاً ولا مهيعاً حرصاً على الإيمان وتوحيد الملك الديان وما كان يزيد ذلك بعض الناس إلاّ كفراً وعناداً وتمرداً وفساداً، فأمره ﷺ تخفيفاً عليه حيث كاد الحرص على إيمانهم يوجه سهام التلف إليه كما قال تعالى ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ [الكهف: ٦] بأن يخص التذكير بمواد النفع في الجملة بأن يكون من يذكره كلاً أو بعضاً ممن يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه الكريمة في تذكير من لا يورثه التذكير إلاّ عتواً ونفوراً وفساداً وغروراً من المطبوع على قلوبهم كما في قوله تعالى ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [ق: ٤٥] وقوله سبحانه ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا﴾ [النجم: ٢٩] وعلمه ﷺ بمن طبع على قلبه بإعلام الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام به فهو ﷺ بعد التبليغ وإلزام الحجة لا يجب عليه تكرير التذكير على من علم أنه مطبوع على قلبه فالشرط على هذا على حقيقته، وقيل إنه ليس كذلك وإنما هو استبعاد النفع بالنسبة إلى هؤلاء المذكورين نعياً عليهم بالتصميم كأنه قيل: افعل ما أمرت به لتؤجر وإن لم

ينتفعوا به وفيه تسلية له ﷺ، ورجح الأول بأن فيه إبقاء الشرط على حقيقته مع كونه أنسب بقوله تعالى ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ أي سيذكر بتذكيرك من من شأنه أن يخشى الله تعالى حق خشيته أو من يخشى الله تعالى في الجملة فيزداد ذلك التذكير فيتفكر في أمر ما تذكره به فيقف على حقيقته فيؤمن به وقيل إن ﴿إن﴾ بمعنى إذ كما في قوله تعالى ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي إذ كنتم لأنه سبحانه لم يخبرهم بكونهم الأعلون إلاّ بعد إيمانهم وقوله ﷺ في زيارة أهل القبور: «وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون» وأثبت هذا المعنى لها الكوفيون احتجاجاً بما ذكر ونظائره وأجاب النافون عن ذلك بما في المغني وغيره وقيل هي بمعنى قد، وقد مال بهذا المعنى قطرب. وقال عصام الدين: المراد أن التذكير ينبغي أن يكون بما يكون مهماً لمن له التذكير فينبغي تذكير الكافرين بالإيمان لا بالفروع كالصلاة والصوم والحج إذ لا تنفعه بدون الإيمان، وتذكير المؤمن التارك للصلاة بها دون الإيمان مثلاً وهكذا فكأنه قيل: ذكر كل واحد بما ينفعه ويليق به. وقال الفرّاء والنحاس والجرجاني والزهراوي: الكلام على الاكتفاء والأصل ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ وإن لم تنفع كقوله تعالى ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل: ٨١] والظاهر أن الذين لا يقولون بمفهوم المخالفة سواء كان مفهوم الشرط أو غيره لا يشكل عليهم أمر هذه الآية كما لا يخفى.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي ويتجنب الذكرى ويتحاماها ﴿الأَشْقَى﴾ وهو الكافر المصرّ على إنكار المعاد ونحوه الجازم بنفي ذلك مما يقتضي الخشية بوجه وهو أشقى أنواع الكفرة. وقيل: المراد به الكافر المتوغل في عداوة الرسول ﷺ كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة. وقد روي أن الآية نزلت فيهما فإنه أشقى من غير المتوغل. وقيل: المراد به الكافر مطلقاً فإنه أشقى من الفاسق وقيل المفضل عليه كفرة سائر الأمم فإنه حيث كان المؤمن من هذه الأمة أسعد من مؤمنيهم كان الكافر منها أشقى من كافريهم والأوجه عندي في المراد بالأشقى ما تقدم ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي الطبقة السفلى من أطباق النار كما قال الفراء ولا بعد في تفاضل نار الآخرة وكون بعض منها أكبر من بعض وأشد حرارة. وقال الحسن ﴿الكبرى﴾ نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا ففي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». وفي رواية للإمام أحمد عنه مرفوعاً أيضاً: «إن هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم» فلعل السبعين وارد مورد التكثير وهو كثير ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿ولا يَحْيَى﴾ أي حياة تنفعه، وقيل: إن روح أحدهم تصير في حلقه فلا تخرج فيموت ولا ترجع إلى موضعها من الجسد فيحيا وهو غير غني عن التقييد بنحو حياة كاملة على أنه بعد لا يخلو عن بحث وثم للتراخي في الرتبة فإن هذه الحالة أفظع وأعظم من نفس المصلي. وقال عصام الدين: يحتمل أن يكون هذا الكلام كناية عن عدم النجاة لأن النجاة عن العذاب إنما يكون بالعمل في دار يموت فيها العامل ويحيا، والنظم أقرب إلى هذا المعنى كيف واللائق بالمعنى السابق ثم لا يكون ميتاً فيها ولا حياً فتأمل انتهى. وفي كون اللائق بالمعنى السابق ما ذكره دون ما في النظم الجليل منع ظاهر والظاهر أنه لائق به مع تضمنه رعاية الفواصل وكذا في توجيه كون ما ذكر كناية عن عدم النجاة خفاء وكأنه لذلك أمر بالتأمل وقد يقال: إن مثل ذلك الكلام يقال لمن وقع في شدة واستمر فيها فلا يبعد أن يكون فيه إشارة إلى خلودهم في العذاب وأمر التراخي الرتبي عليه ظاهر أيضاً لظهور أن الخلود في النار الكبرى أفظع من دخولها وصليها. واعلم أن عدم الموت في النار على ما صرح به غير واحد مخصوص بالكفرة وأما عصاة المؤمنين الذين يدخلونها فيموتون فيها، واستدل لذلك بما أخرجه مسلم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «أما

أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال ـ بخطاياهم فأماتهم الله تعالى إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء فينبتون نبات الحبة في حميل السيل» قال الحافظ ابن رجب: إنه يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة وتفارق أرواحهم أجسادهم، وأيد بتأكيد الفعل بالمصدر في قوله عليه الصلاة والسلام «فأماتهم الله تعالى إماتة» وأظهر منه ما أخرجه البزار عن أبي هريرة مرفوعاً: «إن أدنى أهل الجنة حظاً أو نصيباً قوم يخرجهم الله تعالى من النار فيرتاح لهم الرب تبارك وتعالى وذلك أنهم كانوا لا يشركون بالله تعالى شيئاً فينبذون بالعراء فينبتون كما ينبت البقل، حتى إذا دخلت الأرواح أجسادهم فيقولون ربنا كما أخرجتنا من النار وأرجعت الأرواح إلى أجسادنا فاصرف وجوهنا عن النار، فينصرف وجوههم عن النار» وهذه الإماتة على ما اختاره غير واحد بعد أن يذوقوا ما يستحقونه من عذابها بحسب ذنوبهم كما يشعر به حديث مسلم وإبقاؤهم فيها ميتين إلى أن يؤذن بالشفاعة لإيجابه تأخير دخولهم الجنة تلك المدة كان تتمة لعقوبتهم بنوع آخر فتكون ذنوبهم قد اقتضت أن يعذبوا بالنار مدة ثم يحبسوا فيها من غير عذاب مدة فهم كمن أذنب في الدنيا فضرب وحبس بعد الضرب جزاء لذنبه ولم يبقوا أحياء فيها من غير عذاب كخزنتها إما ليكون أبعد عن أن يهولهم رؤيتها، أو لتكون الإماتة وإخراج الروح من تتمة العقوبة أيضاً. وقال القرطبي: يجوز أن تكون إماتتهم عند إدخالهم فيها ويكون إدخالهم وصرف نعيم الجنة عنهم مدة كونهم فيها عقوبة لهم كالحبس في السجن بلا غل ولا قيد مثلاً، ويجوز أن يكونوا متألمين حالة موتهم نحو تألم الكافر بعد موته وقبل قيام الساعة ويكون ذلك أخف من تألمهم لو بقوا أحياء كما أن تألم الكافر بعد موته في قبره أخف من تألمه إذا أدخل النار بعد البعث وهو كما ترى. وفي مطامح الأفهام يجوز أن يراد بالإماتة المذكورة وفي الحديث الإنامة وقد سمى الله تعالى النوم وفاة لأن فيه نوعاً من عدم الحسن. وفي الحديث المرفوع: «إذا أدخل الله تعالى الموحدين النار أماتهم فيها فإذا أراد سبحانه أن يخرجوا أمسهم العذاب تلك الساعة» انتهى. والمعول عليه ما ذكرناه وأولاً والله تعالى أعلم.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي نجا من المكروه وظفر بما يرجوه ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهر من الشرك بتذكره واتعاظه بالذكرى وحمله على ذلك مروي عن ابن عباس وغيره. وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ أنه قال في ذلك: «من شهد أن لا إله إلاّ الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله» واعتبر بعضهم أمرين فقال: أي تطهر من الكفر والمعصية وعليه يجوز أن يكون ما تقدم من باب الاقتصار على الأهم، وقيل تزكى أي تكثر من التقوى والخشية من الزكاء وهو النماء، وقيل تطهر للصلاة، وقيل آتى الزكاة وروي هذا عن أبي الأحوص وقتادة وجماعة ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بلسانه وقلبه لا بلسانه مع غفلة القلب إذ مثل ذلك لا ثواب فيه فلا ينبغي أن يدخل فيما يترتب عليه الفلاح والذكر القلبي باستحضار اسمه تعالى في القلب وإن كان ممدوحاً بلا شبهة إلاّ أن إرادته بخصوصه مما ذكر خلاف الظاهر وحكاه في مجمع البيان عن بعض. وما روي عن ابن عباس من قوله أي ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه عز وجل ظاهر فيه وفي إقحام لفظ ﴿اسم﴾ وذهب بعض الحنفية إلى أن المراد بهذا الذكر تكبيرة الافتتاح كأنه قيل وكبر للافتتاح ﴿فَصَلَّىٰ﴾ أي الصلوات الخمس كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس وروي ذلك في حديث مرفوع وقيل: الصلاة المفروضة وما أمكن من النوافل، واحتج بذلك على وجوب التكبيرة حيث نيط به الفلاح ووقع بين واجبين بل فرضين

التزكي من الشرك والصلاة مع أن الاحتياط في العبادات واجب فلا يضر الاحتمال وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل وهو ظاهر، وعلى أن التكبيرة شرط لا ركن للعطف بالفاء وعطف الكل على الجزء كعطف العام على الخاص وإن جاز لا يكون بها مع أنه لو سلم صحته بتكلف فلا بد له من نكتة ليدعي وقوعه في الكلام المعجز فحيث لم تظهر لم يصح ادعاؤه وبناء الركنية عليه والانصاف أنه مع ما سمعت احتجاج ليس بالقوي، وقيل هو خصوص بسم الله الرحمن الرحيم قبل الصلاة وليس بشيء. وعن علي كرم الله تعالى وجهه ﴿**تزكى**﴾ أي تصدق صدقة الفطر ﴿**وذكر اسم ربه**﴾ كبّر يوم العيد. ﴿**فصلى**﴾ صلاة العيد. وعن جماعة من السلف ما يقتضي ظاهره ذلك، وتعقب بأن الصلاة مقدمة على الزكاة في القرآن وأن السورة مكية ولم يكن حينئذ عيد ولا فطر، ورد بأن ذلك إذا ذكرت باسمها أما إذا ذكرت بفعل فتقديمها غير مطرد ومنه ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ [القيامة: ٣١] على أنه يجوز أن تكون مخالفة العادة ها هنا للإرشاد إلى أن هذه الزكاة المقدمة قولاً ينبغي تقديمها فعلاً على الصلاة ولهذا كانوا يخرجونها قبل أن يصلوا العيد كما جاء في الآثار، وكون السورة مكية غير مجمع عليه وعلى القول بمكيتها الذي هو الأصح يكون ذلك مما تأخر حكمه عن نزوله. وأقول أن يقال ﴿**تزكى**﴾ أي تطهر من الشرك بأن آمن بقلبه ﴿**وذكر اسم ربه**﴾ أي قال لا إله إلا الله ﴿**فصلى**﴾ أي الصلاة المفروضة وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ما يؤيده فيكون ﴿**تزكى**﴾ إشارة إلى التصديق بالجنان ﴿**وذكر اسم ربه**﴾ إلى النطق باللسان ﴿**وصلى**﴾ إلى العمل بالأركان لما أن الصلاة عماد الدين وأفضل الأعمال البدنية وناهية عن الفحشاء والمنكر فلا بدع أن تذكر فيراد جميع الأعمال البدنية والعبادات القلبية وقد يقال: اقتصر على ذكر الصلاة لأن الفرائض والواجبات البدنية لم تكن تامة يوم نزول السورة وكانت الصلاة أهم ما نزل إن كان نزل غيرها. وقد روى عطاء عن ابن عباس ويزيد النحوي عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن أن أول ما نزل من القرآن بمكة ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ ثم ﴿**ن**﴾ ثم المزمل ثم المدثر ثم ﴿**تبت**﴾ ثم ﴿**إذا الشمس كورت**﴾ ثم ﴿**سبح اسم ربك**﴾ ثم إن من رداف لا إله إلا الله محمد رسول الله وكان ذكر الله تعالى المطلوب هو مجموع الجملتين فلا بُعد في أن يراد من ذكره تعالى في الآية وإذا اعتبر الإتيان باسمه عز وجل في الجملة الثانية على الوجه الذي أتى به ذكراً له تعالى كان أمر الإرادة أقرب وهذا الوجه لا يخلو عن حسن. وكلمة ﴿**قد**﴾ لما أنه عند الإخبار بسوء حال المتجنب عن الذكر في الآخرة يتوقع السامع الإخبار بحسن حال المتذكر فيها. ولا يبعد أن تكون الجملة مستأنفة استئنافاً جواباً لسؤال نشأ عن بيان حال المتجنب والسكوت عن حال المتذكر الذي يخشى فكأنه قيل: ما حال من تذكر؟ فقيل ﴿**قد أفلح**﴾ إلى آخره وكان الظاهر قد أفلح من تذكر إلا أنه وضع ﴿**من تزكى**﴾ إلى آخره موضع من تذكر إشارة إلى بيان المتذكر بسماته.

وقوله تعالى ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيا**﴾ إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل إثر بيان ما يؤدي إلى الفلاح لا تفعلون ذلك ﴿**بل تؤثرون**﴾ الخ ولعله مراد من قال إنه إضراب عن ﴿**قد أفلح**﴾ الخ وقيل إضراب عن بيان حال المتذكر والمتجنب إلى بيان أنه لا ينفع هذا البيان وأضعافه المتمردين على وجه يتضمن بيان سبب عدم النفع وهو إيثار الحياة الدنيا، والخطاب على هذا للكفرة الأشقين من أهل مكة وعلى الأول يحتمل أن يكون لهم فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضاء والاطمئنان بها والإعراض عن الآخرة بالكلية كما في قوله تعالى ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ [يونس: ٧] الآية ويحتمل أن

يكون لجميع الناس على سبيل التغليب فالمراد بإيثارها إنما هو أعم مما ذكر وما لا يخلو عنه الناس غالباً من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي وترتيب المبادىء. وعن ابن مسعود ما يقتضيه والالتفات على الأول لتشديد التوبيخ وعلى الثاني. كذلك في حق الكفرة ولتشديد العتاب في حق المسلمين، وقيل لا التفات لأنه بتقدير قل. وقرأ عبد الله وأبو رجاء والحسن والجحدري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو عمرو والزعفراني وابن مقسم «يُؤْثِرُونَ» بياء الغيبة وقوله تعالى ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى﴾ حال من فاعل تؤثرون مؤكدة للتوبيخ والعتاب أي تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير في نفسها لما أن نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة أبدي لا انصرام له، وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات وانقطاعه عما قليل لغاية الظهور ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إشارة على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد إلى قوله تعالى ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ وروي ذلك عن قتادة. وقال غير واحد: إشارة إلى ما ذكر من قوله سبحانه ﴿قد أفلح من تزكى﴾ الخ وسيأتي إن شاء الله تعالى في الحديث ما يشهد له. وقال الضحاك: إشارة إلى القرآن فالآية كقوله تعالى ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ [الشعراء: ١٩٦] وعن ابن عباس وعكرمة والسدّي إشارة إلى ما تضمنته السور جميعاً وفيه بعد ﴿لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ أي ثابت فيها معناه. وقرأ الأعمش وهارون وعصمة كلاهما عن أبي عمرو بسكون الحاء وكذا فيما بعد وهي لغة تميم على ما في اللوامح ﴿صُحُفِ إبْرَاهِيمَ ومُوسَى﴾ بدل من ﴿الصحف الأولى﴾ وفي إبهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفى، وكانت صحف إبراهيم عشرة وكذا موسى صحف عليه السلام، والمراد بها ما عدا التوراة أخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله كم أنزل الله تعالى من كتاب؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان». قلت: يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «أمثال كلها أيها الملك المتسلط على المبتلى المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه ويتذكر فيما صنع وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فإن في هذه الساعة عوناً لتلك الساعات واجتماعاً للقلوب وتفريغاً لها، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه فإن من حسب كلامه من عمله أقل الكلام إلاّ فيما يعنيه، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث مرمة لمعاش أو تزود لمعاد أو تلذذ في غير محرم». قلت: يا رسول الله فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح، ولمن أيقن بالنار ثم يضحك، ولمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها، ولمن أبقى بالقدر ثم يغضب ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل». قلت يا رسول الله هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: «يا أبا ذر نعم ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾» والله تعالى أعلم بصحة الحديث. وقرأ أبو رجاء «ابرهم» بحذف الألف والياء وبالهاء مفتوحة ومكسورة وعبد الرحمن ابن أبي بكرة بكسرها لا غير. وقرأ أبو موسى الأشعري وابن الزبير «ابراهام» بألفين في كل القرآن. وقرأ مالك بن دينار «ابراهم» بألف وفتح الهاء وبغير ياء. وجاء كما قال ابن خالويه «ابرهم» بضم الهاء بلا ألف ولا ياء وهذا من تصرفات العرب في الأسماء الأعجمية فإن إبراهيم على الصحيح منها. وحكى الكرماني في عجائبه أنه اسم عربي مشتق من البرهمة وهي شدة النظر ونسبه قد تقدم وكذا نسب موسى ﷺ.